الأسطـــــورَةُ

وَالمَغــرِبُ الأقصـــــى

الأسطورة
والمغرب الأقصى

دراسة تنسيقية تفسيرية
لتاريخ المغرب الأسطوري وجغرافيته

الأســــطــــورَةُ
وَالمَـغــربُ الأقـصـــى

دِراسَـةٌ تَنسيقِـيَّةٌ تَـفسيـريَّةٌ
لِتـاريخ المَغـــربِ الأسطـــوريِّ وَجَـغـــرافِـيَّـتِـــه

مُقدِّمَة

كانَ هاذا الكِتابُ في أصلِه، قِسمًا مِن أطروحَتِنا لِدُكتوراةِ الدَّولة، كُنّا قد تَقدَّمنا بها إلى كُلِّيَّةِ الآدابِ بفاس، عامَ 1416 هـ - 1995م، وَعُنوانُها: "الأسطورَةُ المَغربيَّةُ القديمَة: دِراسَةٌ تَمهيديَّة"، وكانَ قد أشرفَ عليها أستاذُنا الكَبير، د. مُحمَّد السَّرغينِي. وَقد كُنّا نشَرنا البابَيْنِ النَّظريَّيْنِ الأوَّلَيْنِ مِنها في كِتابٍ مُستَقِلٍّ عُنوانُه: "الأسطورَةُ المَغربيَّةُ القديمَة: دِراسَةٌ في المَفهومِ والجِنس"، عامَ-1423-2003م. وَبَقِيَ هاذا القسمُ غيرُ النَّظريِّ مِنها غيرَ مَنشور، قد صرَفَتنا عَنهُ الصَّوارف، وَقطَعَتنا عَنهُ قواطِعُ الأيّام. فارتَأينا أن نُحوِّلَهُ في هاذِهِ السَّنَة، 1434 هـ-2013م، بِحَولِ اللهِ تَعالى، إلى كِتابٍ مُستَقِلٍّ في بِنيَتِهِ وَهَيكَلِهِ وَمَقصَدِه، وإن كانَ تابِعًا تَبعِيَّةً مُطلقَةً في المَفاهيمِ النَّظريَّةِ لِلكِتابِ الأوَّل، ولا سِيَما في تَصوُّرِنا لِمَفهومِ الأسطورَة، وَفي استِعمالِنا لِلمَفاهيمِ والمُصطلَحاتِ الواصِفَةِ لَها، الَّتي استَخرَجناها مِنَ التُّراثِ العَربِيّ، فأحيَيْناها وَشَغَّلناها، أو تَرجَمناها أو ابتَدَعناها لمّا أعجَزَنا الإحياءُ وَالتَّرجَمَة. بَل قُل، إنَّ هاذا الكِتاب، هُوَ كِتابٌ طَبَّقنا فيهِ تَوجُّهَنا النَّظريّ، عَلى مَوضوعٍ كَبير، هُوَ المَغربُ القديمُ وَالوَسيط، تاريخًا وَجُغرافِيَة، كَما استَسطرَتهُ الأسطورَة، أي كَما حَوَّلَتهُ الأسطورَةُ مِن واقِعٍ تاريخِيٍّ أو جُغرافِيّ، إلى "واقِعٍ" أسطوريّ، لا يوجَدُ في "واقِعِ الواقِع"، وَإنَّما يوجَدُ في "واقِعٍ" أسطوريّ"، واقِعٍ ذِهنِيٍّ يَحتاجُ أشَدَّ الحاجَةِ إلى التَّحليلِ النَّقدِيِّ وَالتَّفسير، أنتَجَهُ وَأفرَزَهُ خَيالُ الإنسانِ المَغربِيِّ وَأدَبُهُ وَرُؤيَتُهُ لِلعالَم.

ولَسنا نُذيعُ سِرًّا إن ذَكَرنا ما واجَهَنا من صُعوبات في إنجاز هاذا العمَل، مُتَمثِّلَةٍ في تَشتُّتِ النُّصوص الأسطوريَّة المغربيَّة في عددٍ كَبيرٍ من المَصادر، وعَدَمِ وُجودِ ديوانٍ أو دواوينَ مُتَخصِّصَةٍ تَضُمُّها، مثلما نَجِدُ الشِّعرَ والرَّسائلَ والمَقاماتِ والقِصَصَ القصيرَة تُضَمُّ وَتُنَسَّقُ في الدَّواوين، ولا سِيَما الأساطيرُ العَجائبيَّةُ والتَّكوينيَّة "الأوَّليَّة" (ومِنها أساطيرُ الأصول) وأساطيرُ "المَزاعِم". بل حتّى الأساطيرُ الكراميَّة، وعددٌ كَبيرٌ منها مَجموعٌ في كُتُبِ المَناقِبِ الصّوفيَّة، يَختلِطُ بالحكاياتِ والمَنازِع وغيرِ هاذا من ضُروبِ السَّرد. كما أنَّ عددًا هامًّا مِن هاذه الأساطير الكَراميَّة، مُتفرِّقٌ في بُطونِ المَصادِر.

وكَذالِك، كان وُرودُ الأساطير علينا في رواياتٍ متعدِّدة، ملخَّصةٍ أو مُضخَّمة، أو مُحرَّفة، أو مُتداخِلةٍ مُركَّبة، أي على غير "الصّورةِ الأصليَّة" التي "يُفترَضُ" أنّها كانت عليها في البَدء، وَهيَ مُتداولَة بينَ النّاس، قبل أن تُتداول في المَصادِر، مَدعاةً للتّساؤُل عن العلاقة أو العلاقاتِ الكائنةِ بين هاذِهِ الرِّوايات الأسطوريَّة، وعن إمكانيَّة تجميعِها، وتَرتيبها وتنظيمِها، قصدَ وضعِها في نسَقٍ واحِدٍ ينتَظِمُها انتِظاما، بدلَ الشّتّاتِ الّتي هي فيه، أو على الأصحّ، قصدَ إعادةِ تَنسيقها، إذا افتَرضْنا افتِراضًا منهَجيًّا أنّ مَجموعَ ما عِندَنا من الأساطير، أو ما وَصَلَنا مِنها، إذا استَثنَينا الأساطيرَ الصّوفيَّة الكَراميَّة، كان يُشكِّل نَسَقًا واحدًا في الأصل، يَدورُ حَولَ شَيئَيْنِ اثنَيْن: تاريخ المَغرب وَالإنسانِ المَغربيّ، أفرادًا وَقبائِلَ وَدُوَلا، قبلَ الإسلامِ وَبَعدَه، (إلى نِهايَةِ العَصر الوَسيط) وَجغرافِيَةِ المَغرب، كانَ مُتناسِقًا في ذاتِه، وَيُشكِّلُ مَنظومَةً أو مَنظومات، وَدالاًّ وَذا مَعنى، فلَم يَكُن ثرثرَةً وَلا عَبَثًا، قَبل أن تَصِلَ إليه يَدُ المُسطِّرينَ بالتّفكيكِ وَالتّلخيصِ المُفرطِ المُخِلِّ وَالعَبَثِ أحيانا.

ولقد ذَهَبنا في كِتابنا سابق الذِّكر، إلى أن الأساطير المغربيَّة، بما هي نُصوصٌ سَرديَّة أدبيَّة، يَنتَظِمها جِنسٌ أدبيٌّ واحِد، في داخِله أنواعٌ متنوِّعة وأصناف، تَنتَظِمُ هي كَذالِك هاذِهِ الأساطير. وذالِك بحسَب القواسمِ المُشترَكةِ بينَها، أي السِّماتِ الأدبيَّةِ المُهَيمِنَة فيها. ولقد تعرَّضنا فيهِ إلى هاذه الأنواع، وبيَّنا إمكانَ تَنسيق أساطيرنا المغربيَّة في أنساق شكليَّةٍ مُعيَّنَة، هي الأنواعُ الأدبيَّة.

بَيدَ أنّ التّنسيقَ النّوعيَّ للأساطير، مِن حَيثُ هِيَ أنواعٌ مُندَرِجَة في الجِنسِ الأسطوريّ، ليس هو السَّبيلَ الوَحيد، أو الطّريقةَ الوحيدة لإخراج هاذا الكَمِّ الهائِلِ من النُّصوص السَّرديَّةِ الأسطوريَّةِ من الشّتّات إلى النِّظام، لأنَّهُ تنسيقٌ شَكليّ، لا يَكادُ يَعبأ بالأساطير إلاّ مِن حَيثُ هي شَكلٌ أو أشكال. لاكِنَّ الأدب، والأدبُ الأسطوريُّ منه، ليس شَكلاً فقطّ، ولا شَكلاً فارِغًا غيرَ دالّ. بل هو كَذالِكَ مَضامينُ ومَعان، وأغراضٌ ومَوضوعات.

وإذا بَنَينا على أنّ الأدبَ ليس شَكلاً فقطّ، كما عِندنا في تراثنا العربيِّ النَّقدي، وليس شَكلاً غيرَ دالّ، فإنّنا عندئذ سوف نُواجِهُ هاذا السُّؤال: هل يُمكِنُنا أن نُخرجَ هاذِهِ الأساطيرَ من الشّتّاتِ إلى النِّظام، بناءً على أساس غير شَكليّ؟

إنَّ الجَوابَ قد يَأتي سَريعًا فيُقال: مادامَ عِندَنا في تُراثِنا العربيّ، تَصنيفٌ للشِّعر، بحَسَبِ أغراضِه، إلى شِعرٍ للمَديح، وآخَرَ للرِّثاء، وآخَرَ للغَزَل، فلِماذا لا نُحاول أن نَجِدَ في أساطيرنا العربيَّةِ "أغراضًا" أسطوريَّة، كما عِندَنا في الشِّعر؟

إنَّ هاذا الجوابَ قد يَكونُ صَحيحًا جدًا، بل وَجيهًا، إذا كُنّا واعينَ بما نَصنَعُ ونُفكِّرُ فيه، أي واعينَ بأنّنا بذالِكَ نُسقِطُ المَفاهيمَ النَّقديَّةَ الشِّعريَّةَ التُّراثيَّة، ونُعَمِّمُها على الأسطورة، أي على جِنسٍ أدبيٍّ آخَرَ مُغايرٍ للشِّعر تَمامَ المُغايَرة. فإذا جازَ لنا أنْ نَقومَ بهاذا الإسقاط، وأن نُفكِّرَ في الأسطورة بالشِّعر، ونُنشِئَ نَقدًا أسطوريًّا مَبنيًّا عليه، فلا علينا عندئذٍ إن أوجَدنا عددًا هائلا مِن "الأغراض" الأسطوريَّةِ الَّتي لا تَكادُ تَنحصِر. وعندئذٍ نتحدَّثُ مثلا عن غَرَضِ "الهجرة"، أو غَرَضِ "الأوليَّة"، أو "التَّكوين"، أو "الكرامة"، أو "المَدينَةِ المُقدَّسة"، أو "المَدينةِ المَسحورة"، أو "المدينة العَجائبيَّة"، أو "المرأة"، أو "الموت"، أو ما إلى هاذا. ويَستَطيعُ كُلُّ ناقد أن يوجِد مِن عِنديّاتِه ما يشاء مِن الأغراض، دونَما ضابطٍ نَقدِيٍّ لها يُذكَر.

إنَّ هاذا الإشكال، إشكالَ الغَرَض، أو "الموضوع"، قد واجهَه النَّقدُ الغربيُّ المُعاصِر. فهاذا تزفتان تودوروف، يُعلِن في كِتابه: "مَدخَلٌ إلى الأدبِ العَجائبِيّ"، أنَّهُ لا توجَد في الغرب أيَّة نَظريَّةٍ عامَّة للمَوضوعات. وفي غياب هاذِهِ النَّظريَّة العامَّة، فكُلُّ ما يأتي به هاذا النَّقدُ الغَرَضِيُّ (أو المَوضوعيُّ) من مُصطلحاتٍ تَدُلُّ على مَوضوعات مَحسوسة، لا يُشَكِّلُ أيَّ نِظامٍ مَنطِقيّ. بَل لا يَزيدُ هاذا النَّقدُ عِندَهُ على أن يَكونَ نَثرًا للأدب، لا نَقدا له. يَقول: "إنَّ مُصطلحاتٍ مَحسوسة بِهاذا القدر، لا تُشكِّلُ بالبداهَةِ أيَّ نِظامٍ مَنطِقِيّ...لاكِن، إذا كانت لائحَةُ المُصطلحاتِ لانِهائيَّة وغيرَ مُنَظَّمَة، فَفيمَ تفضيلُها على النَّصِّ نفسِه، الَّذي، مَهما يَكُن مِن أمره، يَحتوي على كُلِّ هاذِهِ الأحاسيس، ويُنَظِّمُها بطريقة ما؟ إنَّ النَّقدَ الغَرَضِيَّ في هاذا المَقام، يُخَيِّلُ إلينا أنَّهُ لَيسَ إلاّ نَثرًا (أو تَمطيطًا للنَّصّ)... لاكِنَّ النَّثرَ ليسَ مِن التَّحليل في شَيء."

وإذا كانَ النَّقدُ الغربيُّ يَشكو مِنَ الافتِقار إلى نظريَّةٍ دلاليَّةٍ للمَوضوعات، دَقيقةٍ ومُتماسِكَة، كما يُصرِّح بذالِك تودوروف، فإنَّ الأمرَ عِندنا أدهى وأمَرّ، إذ النَّقدُ العربيُّ أشَدُّ افتقارًا إليها، وهو الآنَ في مَرحلةِ التَّرجَمَةِ والاقتِباس من النَّقد الغربيّ، لا في مرحلة الإبداع والإنتاج الأصيل، كما هو واضِحٌ ممّا يُنشَرُ مِن كُتُب، وعلى صَفحاتِ المَجلّاتِ في المَشرق والمَغرب.

وأمّا نحن، فلا نزعم أنّنا اكتشفنا أو وضعنا نظريّة للموضوعات أو الأغراض الأسطوريّة، لأنّ أمرَ هاذهِ النّظريّة، ليس بالأمر اليَسير حتّى الآن. ولا يَسعُنا أن نُتابعَ الغربَ في كلّ ما يأتيهِ أو يَذَرُه، ولا سيما أنّ كثيرًا ممّا يُنتِجُهُ النّقدُ الغربيّ، يَحتاجُ إلى زَمانٍ طويلٍ حتّى يَستقرّ في بلاده، ثُمّ إلى زَمانٍ أطولَ حتّى تَستطيعَ الثّقافةُ العَربيّةُ أن تَستوعِبَه بلغتِها الاستيعابَ الصّحيحَ الحقّ. بَيدَ أنّنا استَلهَمنا فِكرة تنسيق أساطيرنا المَغربيّة، أو تَصنيفِها تصنيفًا دَلاليًّا غيرَ شَكليّ، وإخراجِها مِنَ الشّتاتِ إلى النّظام، مِن صَميم تُراثِنا الأسطوريّ العَرَبيّ، من حيثُ هو تُراثٌ نَقدِيٌّ بالفِعل لا بالنّظر.

لقد وَجَدنا المُسَطِّرين الكَرامِيّين مِن الصّوفيّة، يَجمَعون كُلّ ما تَصِل إليه أيديهم أو أسماعُهم مِن أساطير عَلَمٍ بَشَريٍّ بعينه، أو حتّى نَكِرةٍ مَجهول، ويَعقدون له "تَرجَمة" أو "سيرةً" أو "مَناقِبَ" خاصّة به. إنّ هاذا هو ما قامَ به عندنا في المغربِ ابنُ الزّيّاتِ التّادلِيّ، في "التّشوّف"، وأبو العبّاس العَزَفيُّ في "دِعامة اليَقين" مَثلا، والمُؤرِّخونَ الكِبار، كابنِ أبي زَرع وابنِ عَذاري، في فُصولِهِمُ التّاريخيّةِ المَعقودةِ لِلخُلفاءِ والمُلوك، و"أصولِ" الدُّوَلِ وأوّلِيّتِها، والجَغارِفَةُ الكِبارُ في مُصنّفاتِهم، كالإدريسيّ وابنِ عَبدِ المُنعِمِ الحِميَريّ.

إنّ الأعلامَ الأسطوريّين، أفرادًا كانوا أم جَماعات، بَشَرًا كانوا أم أمكِنة، أو حتّى أشياء، هُم بمثابةِ "المَوضوعات"، أو "الأغراض"، في الكِتاباتِ الأسطوريّة التُّراثية، إذا جازَ لنا أن نَستلهِمَ تَجرِبَة هاؤلاءِ الأسلافِ في التّصنيف غير الشّكليّ، ونَراها تَجرِبَة نقديّة بالفعل، لا بالنّظر.

وإذا كان المُسَطِّرون المُتصوِّفة، قد كَفَونا أمرَ تصنيفِ الأساطير الكراميّة، بتَجميعِها حَولَ الأعلامِ البَشَريّين في تَراجمَ تَطولُ أو تَقصُر، فشكّلوا بذلِكَ دواوينَ لأساطيرِهم، وفَسّروها خوارقَها على طَريقتِهم ومَشرَبِهم، فإنّ المُسَطِّرينَ العَجائبيّين، والمُؤرِّخينَ والجَغارِفة لم يَكفونا هاذا الأمرَ إلاّ كِفايَة جُزئيّة فقط. ذالِكَ أنّه ظلّت أساطيرُهم مبعثرةً مُشتّتة في المَصادر، لا نَستطيع بها أن نُكَوّنَ أيّة فِكرةٍ أو صورةٍ عن أيّ عَلَم، بَشَريٍّ أو مكانيّ، مَوضوع أو غَرَضٍ أسطوريّ. فبَينما لا نَستطيعُ أن نَتحدّثَ عن "أسطورة" سَبتة في الأدبِ المغربيّ مثلا، إلاّ بمعرفة "كلّ" أو جُلّ ما وصلنا مِن أساطيرِها، مهما تَكُن أنواعُها الأدبيّة، بل مَهما تَكُن دَرَجَة أدبيّتِها.

إنَّ تنسيقَ أساطير سَبتة بهاذا المَعنى، أو المَنصور المُوَحِّدِيّ، داخل في تَصوُّرنا لعَمليَّة التَّمهيدِ لدراسةِ الأسطورةِ المغربيَّـة، بإخراجِها مِن الشَّتات، إلى نَسَق النِّظامِ العِلمِيِّ العَقلانِيِّ المَنطِقِيِّ المَنهَجِيّ، بالنَّظر إلى حاجتِنا إلى أن يكونَ بين أيدينا ديوانٌ مُنسَّقٌ لأساطير سَبتَة، قبل أن نتشَوَّفَ إلى وَضع أي نَظريَّـةٍ دَلاليَّـةٍ تَخُصُّ الأسطورة المَغربيَّـة، وتَعمَلُ عَلى تفسيرها وَاستِخراج دَلالاتِها الأدبيَّةِ وَالتَّاريخِيَّةِ وَالإناسِيَّةِ وَغيرها مِنَ الدِّلالات.

غيرَ أنَّ عَملنا هذا في تنسيق الأساطير المغربيَّـة، بِحَسَبِ الزَّمان أو التَّاريخ، قبائِلَ وَدُوَلاً وَأعلاما، وَبحَسَبِ المَكان، "أقاليمَ" وَمُدُنا وَمَواضِعَ وَبِحارًا وَسِوى ذالِك، لن يَكونَ بالتَّأكيد مُجَرَّدَ استعراضٍ لها. بَل سوف يَتخَلَّلُهُ كُلَّ ما يَعِنُّ لنا مِن مُلاحظاتٍ نَقدِيَّـةٍ وَتوثيقيَّـة عن هاذه الأساطير، ومن آراءٍ فيها لأجلِ تَفسيرِها تَفسيرًا مَنهَجِيًا بما يَليقُ بها مِن تَفسيرٍ تاريخِيٍّ أو إناسِيٍّ رَمزِيٍّ أو لُغويٍّ أو ما سِوى ذالِك. وَاللهُ المُوَفِّقُ لِلصَّواب.

أ.د. جَعفرُ ابنُ الحاجِّ السُّلَمِيّ

البــابُ الأوَّل
الأسطــورَةُ وَتاريــخُ المَغــربِ

الفَــصلُ الأوَّل
الأســطـــورةُ والجـاهِلــيَّــةُ المغربِيـــَّـــةُ

لا شكَّ عندنا في أنَّ الفتح الإسلاميَّ للمغرب، كان بداية حقبة تاريخيَّة، ونهاية حقبة أخرى في تاريخ هاذا البلد. وبالنَّظر إلى أن المغرب قبل الإسلام، لم يقدر على أن يبنيَ دولة واحدة موحَّدة، بل لم يقدر على ذالك زمنا طويلا بعده، وإلى كون طرف كبير من شماله كان مستعمرة رومانيَّة ثمَّ بيزنطيَّة، وكون أهلِه كانوا على أديان شتّى، كاليهوديَّة والمسيحيَّة والوثنيَّة، أي كانوا في حالة مشابهة لحالة الجزيرة العربيَّة قبل الإسلام، فقد اخترنا أن نُسمِّي زمنَ ما قبل الإسلام هاذا في المغرب، "الجاهلية المغربيَّة".

إنَّ هاذه الجاهليَّة المغربيَّة، لها تاريخُها، بالمعنى العلميِّ الدَّقيق، وهو ما يدرسُه المؤرِّخون المتخصِّصون، ولها "تاريخ" آخر، قد لا يهمُّ المؤرِّخين المتخصِّصين إلاّ قليلا. إنَّه مجموعُ الأساطير الَّتي كان المغربُ الأقصى مسرحا لها، وأهلُه أو الوافدون عليه أبطالا لها. إنَّ هاذا التّاريخ الأسطوريّ، أو الأسطورة التّاريخية، هو ما يهمُّنا نحن في هذا المقام. وهاذه الأساطير، الَّتي تزعُم تصوير تاريخ المغرب الجاهليّ، تسير في اتجاهات متعدِّدة. لاكنَّها تلتقي في نقطة واحدة، هي محاولة تفسير أصول الوجود الثقافيِّ المغربيِّ بعد الإسلام، وربطِ الحصائل الثَّقافيَّة الوافدة، أو القديمة المتحوِّلة، بحصائل سابقة على الإسلام نفسِه، والبحثِ عن دعم أو عن سند إسلاميٍّ لأساطير أو واقعات محلّيَّة. لقد قامت الأسطورة المغربيَّة، وهي تحكي عن الجاهليَّة المغربيَّة، بـ "إعادة" كتابة تاريخ المغرب الجاهليّ، بناءً على زوايا معرفيَّة أسطوريَّة. وهاذا ما سوف نراه.

1. "تاريخُ الخَليقة"، وتفسيرُ ظهور الكون:

لا بدَّ للتّاريخ الأسطوريّ من بداية، أي من نقطة زمنيَّة ينطلق منها. وإذا كانت الأساطيرُ التكوينيَّة العالميَّة تتحدث عن خلق العالم وظهوره وإيجاده، وعن ميلاد الآلهة، وظهور الأفلاك والأنهار والبحار، والجبال والأشجار والحيوان، وعن الإنسان الأوّل، فإنَّ الأسطورة المغربية لا تتحدَّث عن شيء من هاذا، أو على الأصحّ، إنَّه لم يُخلَّد لنا في بطون الأوراق أيُّ شيء مغربيٍّ متفرِّد عن قصَّة خلق العالم، وهي مركز الدّائرة في الأساطير العالميَّة. ذالك أنَّ الأسطورة المغربيَّة على العموم، أسطورة منتسبة إلى الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، بكلِّ ما في هاذه الحضارة من عناصرَ ثقافيَّةٍ تُحدِّدها وتُميِّزها.

ويظهر أنَّ إسلام البربر جعلهم ينسون نسيانا نهائيًّا أساطيرَهم المفسِّرة للتّاريخ. بل جعلهم يُعوِّضون هاذا النَّقص باقتباس أساطير غيرهم جملة وتفصيلا. بل يبنون على أساطير غيرهم أساطيرَ مختصَّة بأصلهم هم وهجْراتهم، وأنبيائهم وغزاتهم، ولا سيما على الأسطورة الإسرائيليَّة التَّوراتيَّة.

لقد شكَّلت التَّوراة رصيدا معرفيًّا يُفسِّر أصلَ العالم، وبداية الإنسان. ولم تشأ الأسطورة المغربيَّة أن تُضيف إليها شيئا جديدا. بل اقتبستها لتنطلق منها إلى تفسير تاريخ المغرب الجاهليّ، ثُمَّ الإسلاميّ. ويُمكننا أن نقول، بناءً على ما بأيدينا من نصوص، إنَّ الأسطورة المغربيَّة أبعدُ الأساطير عن الخوض في "تاريخ الخليقة"، أو تفسير الكون. بل إنَّنا لا نجد مؤرِّخا مغربيًّا كبيرا واحدا، حسب ما وقفنا عليه، يبدأ تاريخه للمغرب، باستعراض نشأة الخليقة، على شاكلة الإمام الطبريِّ أو ابن كثير مثلا. وإنَّ الرَّجاز الكبير، عبدَ العزيز المَلـــــزوزيّ، (-697هـ) حين ابتغى نظم التّاريخ منذ البدء إلى زمنه، في منظومة بلغت 2214 بيت، لم يجد شيئا يقوله عن تكوين الكون. بل لم يُكلِّف نفسَه الحديث عن خلق الأرض والسَّماوات، أو عن الأرض قبل آدم، أو حتّى عن خلق آدم. وهو ما نجده مُسطَّرا تسطيرا عند ابن جرير الطَّبريّ، (-310هـ) في تاريخه الكبير مثلا. إنَّ التّاريخ يبدأ عنده بنزول آدم من الجنَّة، فهو يقول:[1]

---

1. نظمُ السّلوك: 14-15.

"ذِكر آدم، عليه السَّلام:

1. فاسمعْ، رَعاكَ اللهُ، قولي وافهمْ * واعلمْ من الأشياء ما لم تُعلمْ
2. أوّلُ كُلِّ الأنبيـــــــاءِ آدمُ * صلّوا عليه كلُّكم، وسلِّمـــوا
3. به أرادَ اللهُ أن نكونـــــا * ونلزَمَ الحرك والسُّكونـــا
4. مِن بعد ما كان أبونـــا آدمُ * في جنة الخُلد بحَوّا يَنعَـــمُ
5. أهبطهُ اللهُ مِن الجِنـــــانِ * بزلّة كانت مِن الشَّيطـــانِ
6. ولم يزل يَبكي على خطيئتــــهْ * رجاءَ أن يُعيده لجنَّتـــــهْ
7. ثُمَّ اجتباهُ ربُّه فتابـــــا * عليه، بعدما لـه أنابـــا"

لا شكَّ عندنا في أنَّ هاذا النَّظم ليس فيهِ شيءٌ من الخيال الأسطوريِّ المتفرِّد، قد يجعلنا نفترضُ وجودَ نصوص مغربيَّةٍ نثريَّة مفقودةٍ في هاذا الخصوص، ويُحيل عليها ضِمنا. بل إنَّه لا يزيد على أن يكون ترجيزا فيه شيءٌ كثير من التَّقوى لما جاء في القرآن الكريم، عزَّزه عنده بعدئذ الأساطيرُ التَّوراتيَّة الَّتي تتحدَّث عن أنبياءَ لم يذكرهم القرآن، وعن افتراق الخليقة إلى أمَم، وهو أمرٌ لم يأت به القرآن كذلك. يقول:[2]

1. ما فــارَقَ الأرضَ أبونـا آدمُ * حتى بقي في الأرض منه عالَمُ
2. أوصى ابنَه شيث بما أوصـاهُ * فقـام بالأمر وما عصــــاهُ

ثُمَّ قال متحدِّثا عن نوح، عليه السَّلام، والطّوفان، وفناءِ الأمم به، وانتساب النّاس جميعا إليه:[3]

1. ثُمَّ دعا دعوتَه المَشهــــورَهْ * فلم تدَعْ من الجميع صـــورَهْ
2. فعمَّهم بمائه الطّوفـــــانُ * كأنَّهم من قبله ما كانـــوا
3. وكُلُّ نفس بالرَّدى رهينَــــهْ * إلاّ الَّذين ركبوا السَّفينَـــهْ
4. وكان فيها منهم سَبعونـــا * لم يَلدوا البناتِ والبَنينـــا
5. ولم يُخلِّف أحدًا منهم بَشَـــرْ * أمرٌ به ربُّ العبادِ قد أمَـــرْ
6. ولم يَلد خلقٌ سوى أبناءِ نوحْ * إليهم يغدو الجميعُ ويَـــروحْ
7. لأنَّ نوحا آدمُ الصَّغيـــرُ * مَن لم يكن منه فذاك غيــرُ

---

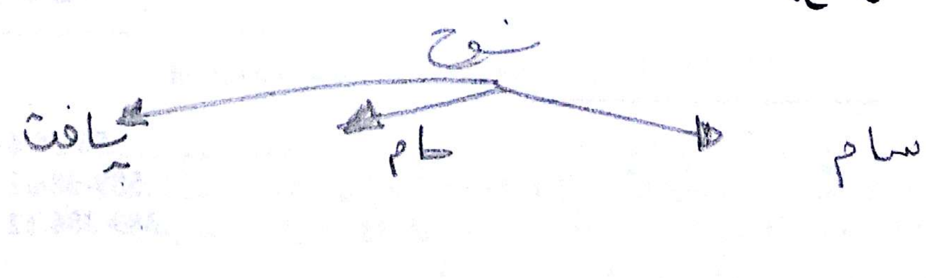
[2]. نظم السّلوك: 15.
[3]. نظم السّلوك: 16.

واضحٌ أنَّ القرآن الكريم لم يُصرِّح بكلِّ هاذه الأشياء، وواضحٌ أيضا أنَّ عبد العزيز الملزوزيّ، وهو ينظم النُّصوص القرآنية، كان يمزجُها بحصائل الثَّقافة الأسطوريَّة الإسرائيليَّة، كما تسرَّبت إلى كُتب التّاريخ والتَّفسير الإسلاميَّيْن. غير أنَّه يُسارع إلى مُجاوزة مسألةِ خلق العالم، وتاريخ الأنبياء، إلى نظم ما يَهمُّه، وهو تاريخ الدَّولة المرينيَّة، وتاريخ الإسلام. ولكي يُمهِّد لهاذا الغرض، لزمه أن يُشير إلى مسألة افتراق الأمَم وأنسابها. قال في فصل: "ذكر أولاد نوح، عليه السَّلام":

1. سامٌ وحامٌ بعده ويـافـــثُ * منهم جميعُ مَن ترى يا حارثُ
2. فيافثٌ لِلرّومِ والصَّقـالبَـــة * والتُّركُ والإشبانُ منه قاطبَـة
3. ومنه ياجوجُ وماجوجُ معـا * وغيرُهم مِمَّن أثار البدَعـــا
4. وحام فاعلَمْه أبـو السّودانِ * لا شكَّ فيه، فاسمعْ بَيانـــي
5. دعا عليه في المَقام نـــوحُ * فاسودَّ منه لونُه الصَّريـــحُ

وبعد أن أشار إلى انتساب الأمَم كلّها إلى أولاد نوح، عليه السَّلام، استعرض الملزوزيُّ في فصل سمّاه: "ذكرُ سام بن نوح، وكيف خلق اللهُ منه الأنبياءَ كلَّهم، عربَهم وعجمَهم"، كثيرا من أنبياء القرآن الكريم وغيره، في أربعة عشر بيتا، انتقل بعدها إلى ذكر الرّسول الكريم، (ص)، وخلفاء المسلمين.

ولنا أن نُلاحظ أنَّ هاذه المنظومة المغربيَّة، إذ تتحدَّث عمّا قبل الإسلام، نادرة، وأنَّها لم تتحدَّث عن تكوين العالم وخلقِه، فلم تستثمر النُّصوصَ القرآنيَّة، ولا الأساطيرَ التَّوراتيَّة، ولا غيرَها. كما أنَّها سارعت إلى طيِّ "تاريخ الأنبياء"، لفتح باب تاريخ الإسلامِ، وأنَّ التَّصوُّر "التّاريخي" الأسطوريَّ الّذي تصدُر منه، ليس فيه جديد. ذالك أنَّ السّودان هم أبناءُ حام، وحام قد اسودَّ بدعاء أبيه عليه. ولنا أن نقول: إنَّ الأسطورة المغربيَّة قد تجاهلت مسألة "خلْق العالم"، ثُمَّ مسألة "تاريخ الخليقة"، و"تاريخ الأنبياء"، وإن الفلتات التي قد نجدها ليس فيها جديد، اعتمادا من الأسطورة المغربية على المخزون الثقافيَّ العربيِّ الإسلاميّ، بمعناه الواسع.



2. أسطورة أصل البربر:

أ. أسطورة التَّسميَةِ وَالاِشتِقاق:

سمّى العربُ الفاتحون أهلَ المغرب الجاهليِّ بربرا. وسواء علينا أكانوا هم الذين ابتدعوا هاذه التَّسمية، أم وافقوا فيها غيرَهم من الشُّعوب التي مدَّت نفوذَها على أرض المغرب، فإنَّ هاذا الاسم قد لزمهم عند المؤرِّخين والمسطِّرين العرب، بل عند المؤرِّخين والمسطِّرين البربر أنفسهم. وإذ قد سمّى العرب أهلَ المغرب الأقدمين بربرا، لزمنا البحثُ عن التَّفسير العلميِّ لهذه الكلمة، قبل أن نأخذ في أساطيرها. لنأخذْ مادَّةَ "بربر"، من اللِّسان العربي. إنَّ فيها: "والبربرة: كثرةُ الكلام، والجلبة بالصِّياح. وقيل: الصِّياح. ورجل بَربار: إذا كان كذلك. وقد بربر، إذا هذى. الفرّاء: البربريّ: الكثيرُ الكلام بلا منفعة. وقد بربر في كلامه بربرة، إذا أكثر. والبربرة: الصَّوت، وكلامٌ من غضب. وقد بربر: مثل ثرثر، فهو ثرثار ... البربرة: التَّخليطُ في الكلامِ من غضب ونُفور ... وبربر التَّيس للهياج، نبّ. ودلوٌ بَربار: لها في الماء بربرة: أي صوت."[4]

ـ يتَّضح من مدلول الكلمة في اللِّسان العربيّ، أن "بربر"، تعني الكلام غيرَ المفهوم، والصَّوتَ المُرتفِع المُختلِط. وبتعبير آخر، تعني كلامَ "الآخرين" غيرَ العرب الكثير، وغيرَ المفهوم، بالنِّسبة إلى مدلول "عرب"، الذي يعني، ضِمن ما يعنيه، التَّعبيرَ بالفصاحة، والإبانة باللغة[5]. وهي بهاذا تُعادل مدلولَ الأعجم والأعجميّ، الّذي يتكلّم لغة غيرَ مفهومة، لغة يصير باستعماله إيّاها في مرتبة الحيوان الأعجم، الّذي لا يُفهَم كلامُه، لأنّه غيرُ مُعرَب ولا مُبين.[6] وإذا كانت كلمة "بربر" عربيَّة أصيلة، لا مجرَّد تعريب لكلمة يونانيَّة لاتينيَّة تعني المتوحِّشين والهمَج، كما هو شائع، فإنّها تعكس إحساسا عربيًّا بتميُّز لغة الأمازيغيّين و"غرابتها"، و"استغلاقها". بل تعكس أيضا شيئا من الإحساس بتميُّز سلوكِ الإنسان الأمازيغيّ. (سرعة الغضب. النُّفور.الجلبة. الهيجان). إنَّ هاذا المدلول اللُّغويَّ العربيّ، قد ولَّد مجموعة من الأساطير التَّفسيرية، لتفسير الاسم ولتجويزه وإقراره.

---

4. لسانُ العرب: 4/55-56.
5. لسانُ العرب: 1/588-589.
6. لسانُ العرب: 12/386-389.

البربرة: كثرة الكلام

البربر: الكلام الغير المفهوم

ب. بربر: جدُّ البربر:

لا تخلو أنساب البربر، وما أكثرَ سلاسلَ نسبهم، من إشارة إلى أجداد أسطوريّين كانوا يتسمَّوْن ببربر. (بربرُ بن قيدارَ بن إسماعيل. بربرُ بن ثميلا بن مازيغ. بربرُ بنُ كسلاجيم. بربرُ بن نفسان بن إبراهيم...)[7]. وإذا كانت عموم سلاسل النّسب لا تأتي بتفسير اشتقاقيٍّ لاسم الأب الأسطوريّ، فإنَّ هاذا لا يعني غيابَه التّام. لقد عثرنا على نصٍّ يرى أن "بربر"، جدَّ البربر، إسمُه لا يعدو أن يكون تكرارا لكلمة البرِّ العربيَّة. قال القلقشنـديّ، (-821هـ) في "صُبح الأعشى": "وذكر الهَمْدانيُّ أنَّهم من ولد بربر بن قيذار بن إسماعيل، عليه السّلام، وأنَّه ارتكب ذنبا، فقال له أبوه: البرّ. البرّ. اِذهب يا برّ، فما أنت ببرّ."[8]

إنّ هاذه الأسطورة التّفسيريَّة الاشتقاقيَّة، إذ تستغل التّكرار الصَّوتيَّ الموجودَ في "بربر"، تُوظّف أبعادا مُعجميَّة أخرى. إنَّ الأب، هو بربر، الذي لزم "البرّ"، والبرِّيَّة، لأنَّه اضطرَّ إلى ذالك. وهو إذ ارتكب ذنبا، ليس ببرّ، بل هو عاقٌّ وطريدُ أبيه. وتكون التَّسمية هنا من باب التَّسمية بنقيض الشّيء، كتسمية المعتزلة قدريَّة، لأنَّهم نفوْا، فيما نُسِب إليهم، القدر. ولا تخلو من الإبلاغ في النِّكاية، إذ تنسب إلى الأب الأسطوريِّ العُقوق، كما لا تخلو من رصد لاستقرار البربر بالبراري والصَّحاري والصَّياصي، دون المُدن وجزائر البحار، وسببَ الهجرة من طرف خفيّ.

ت. البربر، بنو برِّ بن قيس عَيلان:

إذا كانت الأسطورة السّابقة، لا تخلو من نكاية، فإنَّ أسطورة أخرى تُقابلها، تُعيد للبربر اعتبارَهم، فهم بنو "برِّ" بن قيس عيلان. قال ابنُ عبدِ البرّ: "وطوائفُ من البربر يزعُمون أنَّهم من ولد برِّ بن قيس بن عيلانَ بن مُضَر."[9] غير أنَّ هذا لا يُفسِّر التَّكرار الصوتيَّ في كلمة البربر، كما في الأسطورة السّالفة. وسوف نرى أنَّ أسطورة التَّسميةِ هاذه، مرتبطة بأسطورة الهجرة البربريَّة

---

[7]. صُبحُ الأعشى: 414/1-415. تاريخُ ابن خلدون: 123/6. مفاخرُ البربر: 64.

[8]. صُبح الأعشى: 414/1.

[9]. القصدُ والأمم: 25. وانظر: فتوحَ البلدان: 226، الجمهرة: 495، مُعجمَ البُلدان: 368/1، رحلة التّيجانيّ: 143، مفاخرَ البربر: 76، بُغية الرّوّاد: 181/1، الحُللَ الموشيَة: 185، المُسندَ الصّحيحَ الحسن: 107، الذّخيرة السّنيّة: 17، لسانَ العرب: 56/4، تاريخَ ابن خلدون: 117/6، جذوةُ الاقتباس: 15/1.

الكبيرة. بل لقد تسرَّبت إلى الشَّعر، فصنعه النَّسابون للاستدلال على صحَّة أسطورة برِّ بن قيس عيلان، أبي البربر.

ث. البربر والبربرة:

لم تخلُ الأسطورة من ربط لملفوظ كلمة البربر، بمدلول كلمة البربرة العربيَّة، لتفسر الملفوظ والمدلول معا. ولكي يكون لهذا الرَّبط قيمة، ولتعزيز أساطير الهجرة البربريَّة الكبرى، كان من اللاّزم توظيفُ أعلام أسطوريّين قدامى، كإفريقشَ الحِميريّ، ليكون ذالك شاهدا لغويًّا وتاريخيًّا معا. قال الطبريّ، ناقلا عن ابن الكَلبيّ، (-204هـ): "وإنَّما سُمّوا بربرا لأنَّ إفريقش قال لهم: ما أكثرَ بربرتهم! فسُمّوا لذلك بربرا. وذكر أنَّ إفريقش قال في ذالك من أمرهم شِعرا، وهو قوله:

1. بربرت كنعانُ لمّا سُقتهـا * من أراضي الهلك للعيش العجبْ"[10]

ج. البربر والبرّ:

إنَّ كون كلمة "بربر" تحتوي على صوتين متكرِّريْن، جعل الانتباهَ إلى معنى الصَّوتين أمرا واردا. إنَّ "برّ" نفسَها كلمة لها مدلولٌ واضح، هو خِلاف البحر، إذا كان اسما، ولم يكن صفة، فيعني حينئذ خلافَ العاقّ، كما قد رأينا. وتقرُب من أسطورة بربر بن قيدار السابقة، أسطورةٌ تفسيريَّة أخرى، تُجزِّئ الكلمةَ لتستثمر معناها، وتُحيل على واقع تاريخيّ. قال الحسنُ بن محمَّد الوزّانُ الفاسيّ، (-960هـ): "يُحكى أنَّ الملك إفريقش، عندما غلبه الآشوريّون، هرَب إلى مِصر. ولمّا وجد نفسَه عاجزا عن مقاومة العدوّ، استشار قومَه في أيِّ سبيل يسلُكونه للنَّجاة، فأجابوه صارخين: البربر، أي إلى الصَّحراء،[11] معبِّرين بذالك عن كونهم لا يعرفون أيَّ حلّ سوى عبور النّيل، واللُّجوء إلى صحراء إفريقيا."[12]

---

[10]. تاريخ الطَّبري: 442/1. (عن ابن الكلبيّ). وانظر: وفياتِ الأعيان: 55/1، (بروايات أخرى)، بُغية الرُّوّاد: 179/1، المُسندَ الصَّحيحَ الحَسَن: 107، تاريخ ابن خلدون: 59/2. 117/6. 122 .123، جذوة الاقتباس: 14/1. نزهة الأنظار: 52/1.

[11]. الصَّواب أن ترد ترجمة هاذا النَّص هاكذا: البرّ. البرّ.

[12]. وصفُ إفريقيا: 34/1.

لا يهمنا أن يكون إفريقش، لا غيرُه، هو الّذي حمل البربر إلى إفريقية، مُختارا أو مُكرَها، ولا أن يكون هو الّذي لقّب البربر بالبربر، ولا أن يكون البربرُ هم الّذين قالوا: البرّ، البرّ، فصار قولُهم علما عليهم. ولاكن يهمّنا من هاذه الأسطورة، أنّها تُريد أن تجعل من كلمة البربر، لفظا متكرِّرا لكلمة البرّ، الّذي هو خِلافُ البحر. وفي هاذا إحالة على واقع تاريخيّ، جعل من الشّعب البربريِّ شعبا سكن البرّ، أو البراريَ والصّحاري، أي شعبا قليلَ العلاقة بالبحر، وتلويحٌ بأنّ الهجرة البربريّة الكبرى، كانت بطريق البرّ، عبر وادي النّيل، وتصويرٌ لتفضيل البربر سُكنى البوادي، على الإقامةِ في المدن الكُبرى. لقد تعدّدت الرِّوايات التّاريخيّة في المصادر عن لزوم البربر للبراري والقفار، وتركِهم المدنَ والسّواحل والبحار للرّوم على التعميم. وهو ما تريد الأسطورة أن تعكسه. قال ابنُ القاضي المكناسيّ، (-1029هـ):

"وسببُ نزول البربر في أرض فاسَ والمغرب، وإتيانِهم من أرض فلسطين، من أرض الشام، أنّ ملكها جالوت، لمّا قتله نبيُّ الله داود...ومَلَكَ البربر، أمر بإخراجهم من بلاد كنعانَ وفلسطين، وأمر بجلائهم إلى جزيرة المغرب. فساروا نحو إفريقية والزّاب، حتّى ضاقت بهم تلك البلاد، وامتلأت منهم الجبالُ والكهوف والرِّمال، وكانوا على أديان مختلفة، وانتهوْا إلى البحر الأندلسيّ، وكانت البلاد قبل البربر للرّوم. فلمّا دخلها البربر، فرَّ الرّوم أمامهم إلى صقلّية. وهي جزيرة عظيمة في البحر، تُحاذي إفريقية. ثمّ رجع الرّوم إلى مدائنهم على صُلح من البربر، إذ كرهت البربرُ نزولَ المدائن، فنزلوا الجبال والرِّمال، لكونهم أصحابَ إبل وبقر، وسُكّان بُيوت أدَم وشَعَر. فعادت المُدن روميّة، والجبالُ والصّحاري بربريّة."[13]

3. أسطورة "أصل البربر" المتعدِّدِ وَالمُتَوَحِّد:

لا بدّ للأسطورة من تفسير الأشياءِ بإعادتها إلى أصولها. ذالك أن لكلِّ شيء أصلاً في الأسطورة. لقد جاء الإسلام إلى المغرب، ومعه العرب، ومعهم ثقافتُهم الّتي تُؤصِّلهم وتصلهم بالأنبياء، وتصلهم بالأب الأوّل، آدم، عليه السّلام، في سلاسلِ نسب طويلة. ولا بدّ من أنّه كان للبربر في جاهليّتهم أساطيرُهم الّتي كانت تتحدّث عن أصولهم. غير أنّ إسلامهم جعل أساطيرَهم الخاصّة تندثر،

[13]. جَذوة الاقتِباس: 14/1.

فعَوَّضَتها أساطيرُ تُساجم الرُّؤية الأسطوريَّة العامَّة في التُّراث العربيّ. لقد ادَّعى نسّابة البربر، أو ادُّعِي لهم، أنَّ أصلهم يَرجع إلى حام بن نوح. كما ادَّعوْا، أو ادُّعِي لهم، أنَّ أصلهم، أو أصلَ بعضهم، ساميّ. قال الطَّبريّ: "وأمّا حامُ بنُ نوح، فوُلِد له كوشُ ومِصرايِم وقوط وكنعان...وصارت بقيَّة ولدِ حام بالسَّواحل من المشرق والمغرب، والنّوبة والحبشة وفزّان. قال: ويقال: إنَّ مصرايم ولد القِبط والبربر."[14]

وفي نصٍّ آخرَ له يَسيرُ في نفس الاتّجاه، ينقل مضمونَه عن سعيدِ بن المسيَّب التّابعيّ. يقول: "ولَد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث. فولَد سامٌ العربَ وفارسَ والرّوم. وفي كلٍّ هاؤلاء خير. وولد يافثُ التُّركَ والصَّقالبة ويأجوج ومأجوج. وليس في واحد من هاؤلاء خير. وولَد حام القِبطَ والسّودان والبربر."[15]

لقد وجد البربر لهم غصنا آمنا في شجرة الأنساب التّوراتيَّة، إذ إنَّ أصلهم حاميّ، وهم من إخوة الأقباط والزّنج. ويظهر أنَّ إلحاق البربر بهاذه الشَّجرة، قد وقع في زمن مبكِّر من تاريخ الإسلام، لعله كان عند مباشرة الفتح. ويظهر أنَّ هاذا الاستلحاق المبكِّر بالحاميين جعل منه أمرا شبهَ مسلَّم به عند النَّسابين المُسطِّرين. وقد أحسَّ ابنُ خلدون بالشّكّ يُخالجه من نظريَّة انشطار الأمم وافتراقها من لدن أولاد نوح، عليه السَّلام، فقال: "ثمَّ اتَّفق النَّسّابون، ثم نقلة المفسِّرين، على أنَّ ولدَ نوح الَّذين تفرَّعت الأممُ منهم ثلاثة: سام وحام ويافث. وقد وقع ذكرُهم في التَّوراة. وخرَّج الطَّبريُّ في الباب أحاديثَ مرفوعة بمثل ذالك...وهاذه الأحاديث، وإن صحَّت، فإنَّما الأنسابُ فيها مجملة. ولا بدَّ من نقل ما ذكره المحقِّقون في تفريع أنساب الأمم من هاؤلاء الثَّلاثة واحدا واحدا."[16]

كما أحسَّ بالشَّكِّ يُخالِجه في بعض ما يُروى في هاذا الصَّدد، فقال: "وقد توهَّم بعضُ النَّسّابين ممَّن لا علمَ لديه بطبائع الكائنات، أنَّ السّودان هم ولدُ حام بن نوح. أختُصّوا بلون السَّواد، لدعوة كانت عليه من أبيه، ظهر أثرُها في لونه، وفيما جعل الله من الرِّقِّ في عقبه. وينقلون في ذلك حكاية من خُرافات القُصّاص. ودعاءُ نوح على ابنه حام قد وقع في التَّوراة. وليس فيه ذكرُ السَّواد. وإنما دعا

14. تاريخ الطَّبريّ: 206/1.
15. تاريخ الطَّبريّ: 210/1.
16. تاريخ ابن خلدون: 8/2.

عليه بأن يكون ولدُه عبيدا لولد إخوته، لا غير. وفي القول بنسبة السّواد إلى حام، غفلة عن طبيعة الحرّ والبرد وأثرهما في الهواء."[17]

ليس علينا أن نُثبت شيئا أو أن ننفيَه، أو أن نُرجّحه في مسألة أصل البربر. فهاذا أمر ليس من طبيعة بحثنا، ولا هو من اختصاصنا. ولاكن، علينا الانتباهُ إلى ما سمّاه ابن خلدون، وهو عمدةُ مؤرّخي البربر، في هاذا الصدد، "خُرافاتِ القصاص"، أي ما نُسمّيه نحن بلغة معاصرة، "الأساطيرَ" التي تُفسّر أصلَ البربر، على وجه التقريب. ذالك أنّ الكلام في أصل البربر، هو كلامٌ في نسبهم وموقعهم من شجرة الأنساب العالميّة التي رسمتها التّوراة. والأنساب إذ يقع فيها الاختلاط والاختلاف ويشتدّان، يصير أمرُها في الغالب إلى الأساطير. وهاذا ما وقع للبربر، بل لبعض العرب أحيانا. قال ابنُ خلدون، (-808هـ):

"واعلم أنّ الامتياز بالنّسب أضعفُ المميّزات لهاذه الأجيال والأمم، لخفائه واندراسه بدُروس الزّمان وذهابه. ولهاذا كان الاختلاف كثيرا ما يقع في نسب الجيل الواحد، أو الأمّة الواحدة، إذا اتّصلت مع الأيّام، وتشعّبت بطونُها على الأحقاب، كما وقع في نسب كثير من أهل العالم، مثلَ اليونانيّين والفُرس والبربر، وقحطان من العرب."[18]

أ. البربر والأصلُ السّاميّ:

ليست نادرةً الأساطيرُ الّتي تنسب البربر إلى السّاميّين. وعلى الرّغم من كثرة نُقول المؤرّخين المسطّرين في أصل البربر الحاميّ، فإنّ الأسطورة لم تخلُ من ربطهم بسام بطرُق مختلفة. قال ابنُ الأثير، (-630هـ) ناقلا عن ابن الكَلبــيّ، (-204هـ): "والبربر من ولد ثميلا بن مارب بن فاران بن عَمرو بن عِمليق بن لاود بن سام بن نوح. ما خلا صنهاجة وكُتامة، فإنّهما بنو إفريقش بن صيفي بن سبإ."[19] وقد أكّد هاذا الطّبريُّ قبل ابن الأثير[20]، ونقل ابنُ خلدونَ نقلا في زعْم زناتة أنّهم من العمالقة[21]. وتوجَد طرقٌ أخرى لانتساب البربر إلى السّاميين، يُلخّصها قولُ ابن خلدون، وهو يردُّ عليها: "... فأمّا القول بأنّهم من ولد جالوتَ

[17]. المقدّمة: 388/1.
[18]. تاريخ ابن خلدون: 4/2.
[19]. الكامل: 80/1.
[20]. تاريخ الطّبريّ: 207/1.
[21]. تاريخ ابن خلدون: 128/6.

أو العماليق... فقولٌ ساقط، يكادُ يكون من أحاديث خُرافة... وأمّا القول أيضا بأنَّهم من حِميَر، من ولد النُّعمان، أو من مُضر، من ولد قيس بن عيلان، فمُنكَر من القول. وقد أبطله إمام النَّسّابين والعلماء، أبو محمَّد ابن حَزم ... وأمّا ما ذهب إليه ابنُ قتيبة مِن أنَّهم ولد جالوت، وأنَّ جالوت من ولد قيس بن عيلان، فأبعدُ من الصَّواب."[22]

بل لم يخل الأمر من ربط للوشائج بين البربر وبين غسّان،[23] ولخم،[24] وجُذام[25]، من قبائل العرب العاربة اليمنيَّة. وفضلا عن الانتساب إلى قبائل مُضر واليمن، فإنَّ الأمر لم يخلُ من تعليق البربر بالكنعانيّين، والكنعانيّين بالعمالقة[26]، أي لم يخلُ من ربط البربر بالساميّين، ولو بهاذه الطريق البعيدة التي ردَّها ابنُ خلدون، إذ قال: "وأمّا الكنعانيّون الذين ذكر الطبريُّ أنَّهم من العمالقة، فهم عند الإسراءيليّين من كنعانَ بن حام... ولذالك تزعُم زناتةُ المغرب، أنَّهم من هاؤلاء العمالقة. وليس بصحيح".[27]

وتوجَد أسطورة أخرى تذهب إلى أبعد من هاذا، ولا تجَهد لإثبات ساميَّة البربر. ذالك أنَّها تجعل من المغرب الأقصى الموطنَ الأصلي للساميّين. قال ابن خلدون، ناقلا عن المسعوديّ، (-345هـ): "وذكر بعض أهل الآثار، أنَّ الشَّيطان نزغ بين بني حام وبني سام، فوقعت بينهم مناوشاتٌ كانت الدَّبرة فيها لسامٍ وبنيه. وخرج سام إلى المغرب، وقدِم مِصر، وتفرَّق بنوه. ومضى على وجهه يوْمَ المغرب، حتى بلغ السّوس الأقصى. وخرج بنوه في أثره يطلبونه. فكلُّ طائفة بلغت موضعا وانقطع عنهم خبرُه."[28]

بل إنَّ روايات أخرى لهاذه الأسطورة، تجعل لسام قبرا بأصيلا[29]، ومستقرًّا بآسفي، كَما سَوفَ نَرى.

ب. البربر والأصل الحاميّ:

---

[22]. تاريخ ابن خلدون: 6/126-127.
[23]. تاريخ ابن خلدون: 6/120.
[24]. تاريخ ابن خلدون: 6/120.
[25]. تاريخ ابن خلدون: 6/122.
[26]. تاريخ ابن خلدون: 6/122.
[27]. تاريخ ابن خلدون: 2/31.
[28]. تاريخ ابن خلدون: 6/126.
[29]. تاريخ ابن خلدون: 6/126.

كثيرةٌ هي الرِّوايات الأسطوريَّة التي تجعل من البربر شعبا حاميًّا خالص الحاميَّة. فهاذا الطَّبريّ، ينقل، كما قد رأينا، عن سعيد بن المسيَّب التابعيّ، قوله: "وولد حام القبط والسّودان والبربر."[30] وهي كثيرا ما تميل إلى ربط البربر بحام بن نوح، بطريق الكنعانيّين. بل يرى ابن خلدون أنَّ هاذه الطريق هي طريق "الحقّ". قال: "والحقُّ الّذي لا ينبغي التَّعديل على غيره في شأنهم، أنَّهم من ولد كنعان بن حام بن نوح، كما تقدَّم في أنساب الخليقة، وأنَّ اسم أبيهم مازيغ... وملكِهم جالوت، سمة معروفة له..."[31]

كما تنسبهم روايات أخرى إلى حام بطريق "بربر بن كسلاجيم بن مسرايم بن حام"، كما قال الصولي،[32] أو بطريق القِبط[33]، أو بطرق أخرى[34]، ولا سيما طريق كوش وكنعان وابني حام، كما عند ابن قتيبة. (-276هـ)[35] وفي مقابل الرِّواية الّتي تزعُم أن المغرب هو الموطنُ الأول للسّاميين، توجد رواية أسطورية أخرى تُثبت العكس، إذ تجعل حاما هو المهاجرَ إلى المغرب، بدلاً من أخيه، وهي رواية المسعوديِّ نفسِه. قال متحدِّثا عن هجرة حام إلى المغرب الأقصى:

"يقول أهلُ الأثر: إن نوحا، عليه السَّلام، دعا عليه بتشويه الوجه وسوادِه، وأن يكون ولدُه عبيدا لولد سام. فوُلِد له بعد كنعانَ كوش، فكان أسود. فهمَّ أن يقتل امرأته. فمنعه سام، وذكّره دعاءَ أبيه عليه، فغضب. ونزغ الشَّيطان بين الإخوة، وحمَل بعضُهم على بعض. وكان آخرُ أمر حام، أنَّه هرب إلى مصر، وتفرَّق بنوه، ومضى على وجهه يؤُمُّ المغرب، حتّى انتهى إلى السّوس الأقصى، إلى موضع يعرف اليوم بأصيلا. وهو آخرُ مرسى تبلغ إليه مراكبُ البحر، من نحو الأندلس، إلى ناحية القِبلة. وليس بعده للرّاكب مذهب. فيُقال إنَّ بنيه اغتمّوا لمكانه، وندِموا على تركه، فخرجوا على أثره يطلبونه في النَّواحي التي قصَدها. فيُقال إنَّ منهم طوائفَ وقعت عليه، فكانوا معه إلى أن مات. وقطنوا ذالك البلد،

[30]. تاريخ الطبريّ: 210/1. وانظر: القصدَ والأمم:10.
[31]. تاريخ ابن خلدون: 127/6.
[32]. تاريخ ابن خلدون: 123/6.
[33]. الجَمهرة: 498. المُسند الصَّحيح الحسن: 108.
[34]. المُختصر: 97/1.
[35]. كتاب المعارف: 13.

وسكنوا به، وهم أصناف السّودان... ولمّا مات، دفنه بنوهُ في صخرة منقوبة في جبل أصيلا."[36]

ومهما يكُن من أمر مَن جلا إلى المغرب، ومِن اختلاف الرِّوايتين، فإنّ تعاوُر اسم هاذين العلمَين، سام وحام، في نفس الأسطورة، وكونَ المغرب كان مُهاجَرا لهما، يرمز إلى أمر ذي بال، وهو الإحساس العامّ بقِدم استيطان الشّعوب الحاميَّة فيه، البربريَّة والزّنجيَّة[37]، وبقِدم استيطان الشّعوب الساميَّة فيه أيضا، ومنها القبائل البربريَّة المنتسبَة في اليمَن. ولا يهُمّ أن يكون سام هو المهاجر، ولا أخوه، لأنّه علينا أن نأخذ بالرِّوايتين معا، وهاذا أمر منهجيّ. وبذالك نكتشف أنّ الأسطورة تُريد أن تصور بخيالها اللّطيف هاذا، وجودَ هجرةٍ ساميَّة حامية قديمة جدا إلى المغرب، عزّزها فيما بعد هجرةُ بني إسراءيل، وَالعربِ وَالزّنوج.

وإذ تجعل هاذه الأسطورة المغربَ مهجَرا لسام ونوح معا، فإنّها تُريد أن تقول من طرف خفيّ، إن الشّعب البربريّ، شعب ثُنائيُّ الأصل، وله قرابة ما بالقِبط والزّنج وبني إسراءيل والعرب. بتعبير آخر، إنّها تُريد أن تقول إنّ الشّعب البربريّ، هو كتلة بشريَّة ثقافيَّة متركّبة من عناصرَ متباينة الأصل، أكثرُ ممّا هو كتلة عرقيَّة موحّدة الأصل، يحكمُها وهمُ الصّفاءِ العرقيّ، ووهمُ وحدةِ الأصل. وسوف نرى فيما بعد، أنّ قبائل بربريَّة كثيرة، انتسبت إلى العرب بطرق مختلفة، وأنّ كثيرا من المؤرّخين المُسطّرين، كانوا يروْن البربر "أوزاعا" و"أخلاطا" من شعوب قديمة، ساميَّة وحاميَّة.

ت. البربر والأصل اليافثيّ:

عرف تاريخ المغرب الجاهليُّ الاستعمارَ الرّومانيّ. وهو استعمار جاء يحمل معه حضارته الأوربِّيَّة القديمة، المبنيَّة على الثّقافة اليونانيَّة. كما عرف استيلاء الوندال عليه أيضا. وعلى الرّغم من قلّة ما وصلنا من أساطير عن الرّومان والوندال في علاقتهم بالبربر، فإنّ الأمر لم يخلُ من الإشارة والتّذكير الخفيّ بعلاقة المغرب الجاهليّ بالشّعوب الأوربِّيَّة. قال الزُّهريُّ الأندلسيّ، (بعد 546هـ)، متحدّثا عن الشّعوب المتسلّلة من يافث بن نوح: "أشرفها وأحسنها

---

36. أخبار الزّمان: 86-87. وهاذه القصّة في: القصد والأمم: 23-24. (عن عليّ بن كيسانَ النّسّابة)، الرّوض المعطار: 57، بُغية الرُّواد: 180/1. (عن البكري).

37. تتحدّث رحلة حانون القرطاجيّ، عن وجود زنوج في أقصى شمال المغرب، وبالضّبط في حوض نهر لوكس.

وأذكاها اليونانيّون، ثمَّ الأنبار، ثمَّ التُّرك، ثمَّ الدَّيلم، ثمَّ الكُرد أيضا. ثمَّ البربر، ثمَّ ياجوجُ وماجوج. فهاؤلاء من نسل يافث بن نوح، عليه السَّلام."[38]

ليس مهمًّا أن يصحَّ كونُ البربر من الشُّعوب اليافثيَّة أو لا يصحّ. ولاكنَّ المهمَّ هو هاذا الإلحاقُ بالشُّعوب المنحدرة من يافث، ودلالة هاذا الإلحاق. ففيه في نظرنا تعبيرٌ عن الإحساس بوجود روابط ثقافيَّة بين البربر وبعض الشُّعوب الأوربِّيَّة. وإذا كان هاذا الأمر غريبا، على الرَّغم من الجوار، فأغربُ منه وجودُ أسطورة تصل بين العرب العاربة، أهل اليمَن، وقد انتسب فيهم البربر، وبين اليونانيين. قال المسعوديّ:

"وذكر ذوو العناية بأخبار المتقدِّمين، أنَّ يونان أخو قحطان، وأنَّه من ولد عابر بن شالخ... وأنَّه خرج من أرض اليمن، في جماعة من ولده وأهلِه، ومن انضاف إلى جملته، حتّى وافى أقاصيَ بلاد المغرب، فأقام هنالك، وأنسل في تلك الدِّيار، واستعجم لسانُه، ووازى مَن كان هنالك في اللُّغة الأعجميَّة من الإفرنجة والروم...وقد كان يعقوبُ بنُ إسحاق الكِندي، يذهب في بدء نسب يونان إلى ما ذكرنا مِن أنَّه أخٌ لقحطان، ويحتجُّ لذالك بأخبار يذكرُها في بدء الأنساب، ويوردها من حديث الآحاد والأفراد، لا من حديث الاستفاضة والكثرة."[39]

ولعلَّ أسطورة القرابة بين اليونان وقحطان، شبيهة بأسطورة القرابة بين البربر وبني يافث، ومنهم اليونان. غير أنَّ هاذه الأسطورة نادرة، ولا شكّ، وهي مِن "حديث الآحاد والأفراد، لا من حديث الاستفاضة والكثرة"، كما عبَّر عن ذالك المسعودي. ولعلَّ هاذا التَّقارب الأسطوريّ، القحطانيَّ اليونانيّ، قد سهَّل التَّداخُل والتَّشابه السَّرديَّ الأسطوريَّ بين أعلام يونانيّين، كالإسكندر المقدونيّ، وهِرَقل، وَأعلام يمنيّين، كأبرهة ذي المنار، وإفريقشَ الحِميري، في الأسطورة المغربيَّة، وهاذا ما سوف نراه. يُعزِّز ندرة هاذه الأسطورة، أنَّنا لا نعرف أحدا من مُسطِّري البربر، فيما وصلنا، وفيما نعلم، قال بالأصل اليافثيِّ لهم. ولذالكَ ظلَّت نِسيا منسيّا، وأسطورةً شاذة.

---

[38]. كتاب الجغرافية: 67.

[39]. مُروج الذهب: 6/2. وانظر: وصف إفريقيا: 35/1. إفريقيا: 90/1.

ث. البربر وأسطورة الأصل العربيّ:

إنَّ الاختلاف الشَّديد الكائن في أصل البربر بين المسطِّرين، وقوَّة الرِّوايات الَّتي تصل بين البربر وبين السّاميين، جعلت من المُمكن أن تنتسب بعض أهم القبائل البربريَّة، في أساطيرها الخاصة، إلى العرب. بل جعل هاذا الاختلافُ المؤرِّخ المصريَّ الموسوعيَّ القلقشنديّ، (-821هـ) يُصنِّف البربر ضمن عرب "الضَّرب الثالث"، أي "العرب المتردِّد في عروبتهم"، فقال ملخِّصا لأساطير هاذا الاختلاف:

"ذهبت طائفة من النّسّابين إلى أنَّهم من العرب. ثمَّ اختُلِف في ذالك. فقيل: أوزاعٌ من اليمن، وقيل: من غسّانَ وغيرهم، تفرَّقوا عند سيل العَرِم. قاله المسعوديّ. وقيل: أبرهة ذو المنار، أحد تبابعة اليمن، حين غزا المغرب. وقيل: من ولد لقمان بن حِمير بن سبإ. بعث سريَّة من بنيه إلى المغرب ليُعمِّروه، فنزلوا وتناسلوا فيه. وقيل: من لخم وجُذام. كانوا نازلين بفلسطين من الشّام، إلى أن أخرجهم منها بعضُ ملوك فارس. فلجأوا إلى مصر، فمنعهم ملوكُها من نزولها، فذهبوا إلى المغرب، فنزلوه. وذهب قوم إلى أنَّهم من ولد قلشان بن ابراهيم الخليل، عليه السَّلام. وذكر الهمدانيُّ أنَّهم من ولد بربر بن قيذار بن إسماعيل، عليه السلام، وأنَّه ارتكب ذنبا، فقال له أبوه: البرّ. البرّ. اذهب، فما أنت ببرّ. وقيل: من حِميَر... وبالجملة، فأكثر الأقوال جانحة إلى أنَّهم من العرب، وإن لم نتحقَّق من أيِّ عرب هم."[40]

وإذا كنّا نجد ثنائيَّة طاغية تردُّ البربر إلى السّاميّين والحاميّين، أي إلى أصل مزدوج، كما قد رأينا، فإنّنا نجد ثنائيَّة أخرى طاغية، تردُّ الأصل العربي للبربر إلى العدنانيَّة والقحطانيَّة، وتصير بذلك أصول البربر ثنائيَّة، كأصول العرب، ونسخة منها. قال ابن خلدون، ملخِّصا انتسابَ البربر إلى عدنان وقحطان: "وأمّا القول أيضا بأنهم من حِمير، من ولد النُّعمان، أو من مُضَر، من ولد قيس عيلان، فمُنكَر من القول. وقد أبطله إمامُ النَّسّابين والعلماء، أبو محمد ابن حَزم..."[41]

---

40. صُبح الأعشى: 1/414-415.
41. تاريخ ابن خلدون: 6/127.

أمّا ابن حزم الأندلسيّ، (-456هـ) فقال عن هاذه الثّنائية قبل ابن خلدون: "وادّعت طوائف منهم إلى اليمَن، إلى حِمير. وبعضُهم إلى برٍّ بن قيس عيلان. وهذا باطل لا شكَّ فيه. وما علم النّسّابون لقيس عيلان ابنا اسمُه برٌّ أصلا، ولا كان لحِمير طريقٌ لبلاد البربر، إلاّ في تكاذيب مؤرِّخي اليمَن."[42]

إنَّ هاذا "الباطل الّذي لا شكَّ فيه"، و"تكاذيبَ" المؤرِّخين اليمنيّين، هو جزء مما نُسمّيه نحن أسطورة. والظّاهر أنّه ضافرَ الخيالُ الأسطوريُّ العربيّ، ولا سيما خيال مؤرِّخي اليمن المسطِّرين، الخيالَ الأسطوريَّ لبعض النّسّابين البربر، ولبعض القبائل البربريَّة، فنَسَجا أسطورة موحَّدة ومشتركة، ترُدُّ البربر إلى أصل عربيٍّ ثنائيّ.

فلننظر الآن في "طوائف البربر"، الّتي ادَّعت في العرب. قال ابن خلدون: "وأمّا نسّابة البربر، فيزعُمون في بعض شعوبهم أنَّهم من العرب، مثلَ لَواتة، يزعُمون أنَّهم من حِميَر، ومثل هوّارة، يزعُمون أنّهم من كِندة، من السَّكاسِك، ومثل زناتة، تزعُم نسّابتُهم أنّهم من العمالقة، فرّوا أمام بني اسراءيل. وربَّما يزعُمون فيهم أنَّهم من بقايا التّبابعة، ومثل غُمارة أيضا، وزَواوة ومَكلاتة. يزعُم في هاؤلاء كلّهم نسّابتُهم أنهم من حِميَر... وهاذه كلُّها مزاعم."[43]

وعلى الرَّغم من إقرار ابن خلدون بالعلاقة الأسطوريَّة الجامعة بين القبائل البربريَّة المذكورة، وبين قبائل اليمن، على الخصوص، فإنَّه يستثني قبيلتيْ صَنهاجة وكُتامة، ليترك بين الأسطورة وبين التّاريخ شعرة معاوية. قال: "والحقُّ الّذي شهد به المواطنُ والعُجمة، أنّهم بمعزل عن العرب، إلاّ ما تزعُمه نسّابة العرب في صنهاجة وكُتامة. وعندي أنَّهم من إخوانهم."[44]

فأبطل أساطير نسّابة البربر فيما يخصُّهم، واعتمد كلام نسّابةِ العرب، فيما يخصُّ غيرَهم. وإذن يمكننا أن نعُدَّ من القبائل البربريَّة الّتي سطَّرت لها أصلا عربيّا، لواتة وهوّارة، وزناتة وغُمارة، وزَواوة ومَكلاتة، ثُمَّ صنهاجة وكتامة، أي عُظميَات القبائل التي تفرَّعت منها قبائلُ لا حصرَ لها، والّتي بنت دولا كبرى، كدولة المرابطين والفاطميّين والمرينيّين. ويمكننا أن نُضيف إلى ما ذكره ابن

[42]. الجمهرة: 495.
[43]. تاريخ ابن خلدون: 128/6.
[44]. تاريخ ابن خلدون: 128/6.

خلدون، قبائلَ جراوة[45]، ومصمودة[46]، ونفزاوة[47]، وهي قبائلُ لا تقل أهمِّيَّة عن أخواتها في التاريخ، ولا سيما مصمودة، عندما بنت دولة الموحِّدين. ومن الملاحَظ أنَّ القبائل التي ذكرها ابن خلدون، لها جميعا قبائل عربيَّة يمنيَّة تتَّصل بحبلها. أمَّا القبائل الأخرى، فهي عرب دون تحديد للقبيلة. ومن الملاحظ أنَّ القبائل التي لم تنتسب إلى قبيلة يمنيَّة قحطانيَّة، لا تنتسب إلى قبائلَ مُضرية معيَّنة. ولاكنَّها تنتسب إلى علم أسطوريٍّ اخترعته: هو برُّ بن قيس عيلان، وأنَّها تجافت عن الانتساب المباشر إلى قبيلة يمنيَّة معيَّنة.

ج. البربر وأسطورة التَّوحُّد: مازيغُ بنُ كَنعان:

يرى بعض البربر، نسَّابتُهم ومسطِّروهم، أنَّهم أبناء رجل اسمُه مازيغ. بل ما يزال هاذا الشَّعب البربريُّ يُفضِّل أن يُدعى مازيغيًا، أو أمازيغيًا. وهنا تقوم الأسطورة بتوحيد القبائل، وضمِّ الشَّتات البشريِّ المفترِق، ووضْع الجميع موضعا موحَّدا في شجرة الأنساب العالميَّة الَّتي صنعتها التَّوراة. بل إنَّ مؤرخ البربر الكبير، إبنَ خلدون، يبدو مقتنعا بهاذا الرَّأي. يقول: "والحقُّ الذي لا ينبغي التَّعديل على غيره في شأنهم، أنَّهم من ولد كنعان بن حام بن نوح، كما تقدم في أنساب الخليقة، وأنَّ اسم أبيهم مازيغ... وملكهم جالوت، سمة معروفة له...ولا خلافَ بين نسَّابة العرب، أنَّ شعوب البربر... كلَّهم من البربر."[48]

لاكنَّ هاذه الأسطورة التَّوحيديَّة، على الرَّغم من الاقتناع العامِّ بها، كما أبرزهُ ابن خلدون، لم تستطع أن تبتلع غيرها من الأساطير، وتتحوَّل إلى أسطورة واحدة موحِّدة. بل ظلَّ الجدل بينها وبين أساطير الانقسام قائما. ذالك أنَّ ابن خلدون، على الرَّغم من تفنيده لباطل الانتماء البربريِّ في اليمَن، يستثني قبيلتيْن كبيرتيْن اثنتيْن من الاندراج في أسطورة مازيغ بن كنعان. يقول: "...إلاَّ صنهاجة وكُتامة ... والمشهور أنَّهم من اليمنيَّة، وأنَّ إفريقيش لمَّا غزا إفرقية، أنزلهم بها."[49] ذالك أنَّ لهاتيْن القبيلتيْن أسطورتيهما الخاصَّة، المفارِقة لسائر الأساطير البربريَّة. وهاذا ما سوف نراه عند تعرُّضنا للهجرة البربريَّة الكبرى.

---

[45]. مفاخر البربر: 65.
[46]. مفاخر البربر: 71. الرَّوض المعطار: 128.
[47]. رحلة التيجاني: 143.
[48]. تاريخ ابن خلدون: 127/6.
[49]. تاريخ ابن خلدون: 127/6.

ح. أسطورة الانشطار الثُّنائي: البرانس والبُتر:

ساد اعتقادٌ عامٌّ بين البربر، أنَّهم منقسمون بحسب أصولهم إلى قسمَيْن كبيرَيْن: بربر برانس، وبربر بُتر. قال ابنُ خلدون، ناقلا عن المسطِّرين البربر: "وقال هانئُ بن بكور الضَّريسي، وسابقُ بن سُليمانَ المَطماطي، وكهلانُ بن أبي لِوى، وأيّوبُ بنُ أبي يَزيد، وغيرُهم من نسّابة البربر: إنَّ البربر فرقتان... وهم البرانس والبُتر. فالبُتر، من ولد برِّ بن قيس عيلان. والبرانس بنو بربر بن سَحْو... بن مازيغ بن كنعان بن حام. وهاذا هو الذي يعتمده نسّابة البربر."[50]

تُقابل هاذه الأسطورةُ الانشطاريَّةُ الأسطورةَ السّابقة. فكما عندنا مازيغُ بن كنعان، أبو البربر، الَّذي يوازيه كُتامة وصنهاجة، اليمنيَّتان العربيَّتان، عندنا هنا أيضا، مجموعتان من قبائل البربر، إحداهما متوجِّهة إلى السّاميّين العرب، وهي مجموعة البُتر، والأخرى متوجِّهة إلى الحاميِّين الكنعانيِّين، وهي مجموعة البرانس. ووظيفة الأسطورة هنا تصويرُ الأصل المزدوَج للبربر، الحاميِّ السّاميّ، وتأكيدُه. لاكنَّ أهمَّ شيء في هاذه الأسطورة، هو أنَّ رواتها جميعا من البربر أنفسِهم، لا من العرب. أي إنَّها كانت تُشكِّل مواضعة ثقافية بربريَّة في العصر الإسلاميّ، قامت بتوحيد الأساطير السّابقة عن أصل البربر، وإدماجها في رواية واحدة، تُصوِّر رؤيةً واحدةً ذاتية للإنسان البربريِّ عن تاريخه الجاهليّ.

إنَّ وجود هاتيْن المجموعتين، كان لا بدَّ له من أن يُثير السُّؤال عن العلاقة بينهما، فظهر اسمُ مادغيس، الذي انتسب إليه البُتر، كما ظهر اسم بَرنُس، الذي انتسب إليه البرانس. لاكنَّ الأسطورة لا تجيب عن السُّؤال دائما إجابة موحَّدة. إنَّها تستطيع أن تجعل من البرانس والبُتر أقارب تربط بينهم وشائج الأخوَّة، مثلما تستطيع أن تجعل منهم أباعد، بينهم من البُعد ما بين السّاميّين والحاميّين. قال ابن خلدون: "وبين النَّسّابين خلاف: هل هما لأب واحد؟. فذكر ابن حزم، عن أيّوبَ بن أبي يزيد، صاحبِ الحمار، أنَّهما لأب واحد، على ما حدَّثه عنه يوسفُ الورّاق."[51]

---

[50]. تاريخ ابن خلدون: 124/6.

[51]. تاريخ ابن خلدون: 117/6. وانظر الجَمهرة: 495، حيث يوردُ ابن حزم عن يوسفَ الورّاق، أنَّ مادغيس الأبتر، وبرنس، والدُهما هو برّ.

وفي مقابل هاذه الرِّواية المُؤاخية، توجد رواية أخرى مشاقِقة. قال ابن خلدون نفسُه ناقلا عن مسطِّري البربر: "وقال سالم بن سليم المَطماطي، وصابي بن مسرور الكومي، (كذا) وكهلان بن أبي لوا، وهم نسّابة البربر: إن البرانس بُتر، (كذا) وهم من نسل مازيغ بن كنعان. والبُتر، بنو برّ بن قيس بن عيلان. وربَّما نُقِل ذالك عن أيّوب بن أبي يَزيد، إلاّ أنَّ رواية ابن حزم أصحّ، لأنَّه أوثق."[52]

ويظهر أنَّ ثنائية السّامية العربيَّة، والحاميَّة العجميَّة، ظلّت تتحكَّم تحكُّما في نموّ أساطير أصل البربر، وعلاقةِ قبائلهم بعضِها ببعض. وعلى الرَّغم من رواية أيّوب بن أبي يزيد، صاحبِ الحمار، التَّوحيديةِ المُؤاخية، والّتي تجعل من مادغيسَ الأبتر، أخا لبَرنُس، فإنَّها لم تستطع أن تُعيِّن أيَّ أب أسطوري لهما. وهاذا، إن دلَّ على شيء في نظرنا، فهو يدلُّ على أنَّ أساطير أصل البربر، كانت تميل في زمن التَّقييد إلى التَّوحُّد. لاكنَّ هاذا الميل كان يجد دائما من الخلاف والمُعارضة، ما يحبسه عن أداء وظيفته الثّقافية، فتسقط الأسطورة في التّناقض. ومن الغريب أن أبرز القبائل البَرنُسية المنتسبة إلى مازيغ بن كنعانَ بن حام، هي نفسُها المنتسبة إلى العرب، كما قد أسلفنا، وهي الّتي وقع اعتناءُ المؤرخين بتاريخها. فهل يعني هاذا الازدواج الأسطوريّ المازيغيّ العربيّ، أن تلك القبائل كانت تعيش بأسطورتين، وأنَّ الأسطورتيْن كانتا متداخلتين في روايتهما، فلا تثيران كبير حرَج؟ أم يعني أنَّ الازدواج، أو الثُّنائيَّة، كما قد عبَّرنا من قبل، خاصَّة من خواص أساطير أصل البربر؟ يُعدِّد صاحب "مفاخر البربر"، (-712هـ) القبائل البَرنُسية، فيقول: "ذكر العلماء بأنساب البربر، أن البربر فرقتان: البَرانس والبُتر. فالبرانس، هم بنو بربر بن برنوس... إلى مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح، (ص). فالّذين يُسمَّوْن البرانس من البربر هم: المصامدة وغُمارة، وأورَبة وكُتامة، وأوريغة وأزداجة، وعجيسة وصنهاجة، ولمطة وهسكورة، وجزولة ومَسطاسة وهَوّارة..."[53]

أما قبائل البُتر، فنعدُّ من أبرزها، زناتة ومِكناسة، وجِزنّاية ومطالسة، ونفزة وسوماتة، ويطّوفت وسدراتة، ونفّوسة ومليلة، وغيّاثة ومجّاصة.[54] لاكنَّ

---

[52]. تاريخ ابن خلدون: 117/6. وانظر الجمهرة: 495.
[53]. مفاخر البربر: 64.
[54]. بغية الرواد: 181/1.

هاذا التقسيم ليس ضربة لازب. ذالك أنَّ الاصطخريَّ مثلا، يعرض قائمة أخرى من القبائل البُتر، تُخالِف هاذه[55]. فهل يعني هاذا أنَّ القبائل كانت تُبدِّل أساطيرها، بحسب الظُّروف، أم إنَّ هاذا من عمل المسطِّرين من المؤرِّخين. إنَّنا نظُن أنَّ الخلاف في تصنيف القبائل إلى بُتر وبرانس، إنَّما هو ثمرة التَّداخلات العميقة في أساطير الأنساب، والتَّحولات الَّتي جرت فيها، والطابع الازدواجيِّ لأساطير الأصل البربريّ، الَّتي كانت تسمح بالانتماء الأسطوريِّ إلى أصل معيَّن، ثمَّ إلى غيره، دون شعور كبير بالحرج.

خ. إسطورة الأخوَّة القبليَّة الأمويَّة، وأسطورة التَّبنِّي:

إنَّ أساطير الأصل، لا تخلو من تعرُّض لعلاقات القرابة الأمويَّة، وإن كانت نادرة، لأنَّ الأصول، هي من حيث المبدإ أبويَّة. لاكنَّ الاستثناءات ترد دائما على القاعدة. قال ابن حزم، (-456هـ) متحدِّثا عن علاقة القرابة بين صنهاجة ولمطة: "ويُقال إنَّ صنهاج ولمط، إنَّما هما ابنا امرأة يقال لها تِزكّي. لا يُعرَف لها أب. (كذا. والصَّواب: لهما) تزوَّجها أوريغ، فولدت له هوّار. فهم إخوة لأم."[56]

وقال ابن خلدون مبيِّنا لهذه الأسطورة في فصل: "الخبرُ عن لمطة وكزولة، وهسكورة بني تصكي، وهم إخوة هوّارة وصنهاجة": "قد تقدَّم أنَّهم إخوةٌ لصنهاجة، وأنَّ أمَّ الثَّلاثة تِصكّي العرجاء، بنتَ زحيك بن مادغيس. قال ابنُ حزم: إنَّ صنهاجة ولمطة، لا يُعرَف لهما أب."[57]

تخرقِ هاذه الأسطورة إذن العُرفَ العامَّ في أساطير الأصول البربريَّة، بتوظيفها لأمٍّ أسطوريَّة جامعة، لا لأب جامع، كما هو المُعتاد. بل تذهب إلى أبعدَ من هذا، فتنُصُّ على أن ليس بعد صنهاج ولمط أبٌ فيعرف. فتشيرُ إلى ضرب آخر من الأخوَّة القبليَّة، غير المعتاد، وهو الأخوَّة الأمويَّة. ولا بد مِن أنَّ هاذا نظام جاهليٌّ بربريٌّ قديم، تلاشى مع الأيّام والتحوُّلات الثَّقافيَّة، واحتفظت الأسطورة بذكراه. وسواءٌ علينا أكانت تِصكّي العرجاء، امرأة لا يُعرَف لها أب، أي رمزا بدئيا قبليّا، أم كان صنهاج ولمط، أبوا صنهاجة ولمطة، هما اللَّذيْن لا يُعرَف لهما أب، فإنَّ هاذا يعني في نظرنا أمريْن: إنَّ هاذين الأبويْن القبليَّين الرمزيَّيْن

[55]. المسالك والممالك: 44.

[56]. الجمهرة: 498. وفي هذا النَّصِّ خطأ تصحيفيٌّ صوابُه: "إن صنهاج ولمط، إبنا امرأة يقال لها تزكي [= تصكي]. لا يُعرف لهما أب." انظر تاريخ ابن خلدون: 270/6.

[57]. تاريخ ابن خلدون: 270/6. 182/6، وفيهِ رواية أخرى لنفس هاذه الأسطورة، وتلتحق بها قبائل أخرى.

الأسطوريَّين، كانا أقصى ما كان عند هاتين القبيلتيْن الباحثتيْن عن الوحدة الثَّقافية الأسطوريَّة، قبل أن تختلط أساطيرُ أنسابهما بالأساطير العربيَّة، فتصيرا حِميريَّتيْن، لهما علاقة بإفريقش الحِميريّ، وتطولَ أنسابُهما، فتصلَ إلى حام وسام، وأن هاذيْن الأبويْن الرَّمزيَّين، صنهاج ولمط، لم يكن لهما أب معروف، لا لأنَّ المسطِّرين جهلوه، فقد كان مُمكنا أن يخترعوا له اسما، وما أسهلَ هذا على المسطِّرين. ولاكن لأنَّ الاسطورة البربريَّة كانت تجوِّز التولُّد من غير أب، وإنَّما يكفي وجود الأمِّ للتَّوالد. وهاذه أسطورة قديمة وصلنا صدى منها، أورده ابن خلدون.[58] ولا نشكُّ نحن في أنَّ الأسطورة البربريَّة، كانت تُحيل على هاذا التَّولُّد العجيب، لتفسير ما كان ينقطع دونه التَّفسير من أمر بدء هاتيْن القبيلتيْن المتوحِّدتيْن في جاهلية البربر.

ولا شكَّ عندنا في أنَّ علاقات ثقافيَّة واجتماعيَّة عميقة ربطت بين صنهاجة ولمطة وهوّارة في الجاهليَّة البربريَّة، وأنَّ متانة هاذه العلاقات، هو ما رُمِز له من تولُّد من أمٍّ واحدة، دون أب معروف أو مجهول، وأنَّ هاذا الضَّرب من الأساطير، أساطير الزَّواج والتَّآخي، كان كثيرا في الجاهليَّة، قبل أن يضمحلَّ فلا يبقى منه إلاّ رسمُه، بالتحام الأسطورة البربريَّة بالأسطورة العربيَّة الإسرائيليَّة. ولقد وقفنا على مثل آخر من هاذا عند ابن حزم، إذ قال عن أخوَّة مغراوة وسدراتة: "ويقال: إنّ مغراو، وهو من زناتة، تزوّج أمَّ سدراتة، فصارت سدراتة أخا أولاد مغراوة لأمِّهم."[59]

ومثلما نجد ظاهرة التآخي القبليِّ بارزةً في الأساطير السّابقة، وجدنا طريقة أخرى لتفسير الوشائج أو خلقها بين القبائل البربريَّة في الأسطورة. ومَن ذالك القولُ بالتَّبنّي. قال ابن خلدون: "ويقال إنَّ مكلاتة من عرب اليمَن. وقع إلى تطوفت صغيرا فتبنّاه، وليس من البربر... هاكذا عند نسّابة البربر، مثل سابق المطماطيِّ وغيره".[60]

إنَّ هاذه الأسطورة التفسيريَّة تُصوِّر في نظرنا شيئيْن اثنيْن:

---

[58]. انظر تاريخ ابن خلدون: 139/6، وأسطورة الإنسان ابن الأسد، وحديثَ ابن خلدون عن الخوارق عند البربر.
[59]. الجمهرة: 497.
[60]. تاريخ ابن خلدون: 150/6.

1. العلاقة القرابيّة الموجودة بين قبيلتيْن بربريَّتيْن اثنتيْن، هما مكلاتة وتطّوفت، وطبيعة هاذه العلاقة، الّتي هي علاقة احتواء وتحالف. (علاقة أبوّة وبنوّة وولاء).

2. رغبة قبيلة مكلاتة، بعد أن اشتدَّ منها السّاعد، في الاستقلال الثّقافيّ والاجتماعيّ عن قبيلة يطّوفت، وهي قبيلة أقلّ بريقا منها بكثير، والرّغبة في البحث عن أب آخر، أكثرَ مجدا ولمعانا من يطّوفت، وهو ما وجدته في عرب اليمن. ولم تجد من حيلة للتَّبرُّؤ من علاقة الولاء القديمة، إلاّ إعادة تفسيرها، بادِّعاء أنَّ الأبوَّة المزعومة، إنَّما هي أبوَّة التَّبنّي، لا أكثر. وقد ابتغى ابن خلدون تفسير ظاهرة التَّبرُّؤ من الأنساب البربريَّة الأسطوريَّة، والاستبدالَ بها الأنساب العربيَّة، فقال: "وإنَّما حمَل نسّابة البربر على الانتساب في حِميَر، التَّرفُّع عن النَّسب البربريّ، لِما يرونهم في هاذا العهد خَوَلا وعبيدا للجباية وعوامل الخراج... وصار اسمُ البربر مختصًّا لهاذا العهد بأهل المَغرم، فأنِف زناتة منه، فرارًا من الهَضيمة. وأعجبوا بالدُّخول في النَّسب العربيِّ لصراحته، وما فيه من المزيَّة بتعدُّد الأنبياء، ولا سيما نسبُ مُضَر، وأنَّهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم."[61]

ومهما تكنْ قوَّة الضُّغوط السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة على الثَّقافة الأسطوريَّة البربريَّة، الّتي عملت على خلق تحوّلات عميقة في أساطيرها، وجعلتها تعمل على إعادة صياغة نفسِها، كما هو واضح من تفسير ابن خلدون لهاذه الظّاهرة، فإنَّ هاذا لا ينبغي له أن يُنسيَنا حقيقة ثقافيَّة أخرى، هي استقرار الثَّقافة الأسطوريَّة العربيَّة، في مقابل عدم الاستقرار الثَّقافيِّ الأسطوريِّ البربريّ، وهو ما عبَّر عنه ابنُ خلدون بـ"صراحة النسب"، فضْلا عن الإحساس الموجود داخل الثَّقافة البربريَّة، بعد أن مازجها الإسلام، بالنَّقص الثَّقافيّ، وهو ما عبَّر عنه ابنُ خلدون بـ"مزيَّة تعدُّد الأنبياء". ذالك أنَّ هاذه المزيَّة الدِّينيَّة الإسلاميَّة، مفقودةٌ في الثَّقافة البربريَّة. وهو ما حاولت مكلاتة تعويضَه بالتَّبرُّؤ من يطّوفت. ولمّا كانت مكلاتة لم تتح لها الفرصة لتطمع في السُّلطان، فإنَّها قنعت واكتفت بالسُّلطان الرَّمزيّ القديم، سلطان عرب اليمن، ولم تجرأ على أن تدَّعي لها وشيجة بقبائل مُضَر، فتفخرَ بما سلف لها من الأنبياء.

---

[61]. تاريخ ابن خلدون: 6/7.

د. أساطير أسماء القبائل البربريّة:

تذهب كتب التّاريخ الأسطوريّ إلى أنّ كلّ قبيلة بربريّة هي بالضّرورة منتسبة إلى جدٍّ واحد، يُطابق اسمُه اسمَها. إنّ كتامة مثلا أبوها هو كُتام. "وهو كتامُ بنُ برنُس بن مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح"[62]، وصنهاجة، من صنهاج، "وهو صنهاج بن يصو بن ميسور. ونسبُه يرتفع إلى يعربَ بن قحطان."[63] وجراوة من جراو، وهو "جرارو بن وراسيخ بن الديرية بن جانا بن يحيى بن ضريس، وهو جالوت."[64]

ومهما يكن من أسطوريّة هاذه الأنساب، فقد لاحظنا أنّها أحيانا تأتي مصحوبة بأساطيرَ تفسيريّة اشتقاقيّة، ولا سيما إذا كانت الجذور المعجمية تسمح بذألك. وهي تشابه الأساطير التّفسيريّة الاشتقاقيّة المتعلّقة بأصول البربر. قال الشّريف الإدريسيّ، (-560هـ)، عن هوّار، جدّ قبيلة هوّارة: "... وإن أميرا من أمراء العرب، يُسمّى المُسوِّر، كان ساكنا مع قومه في بلاد الحجاز، فضاعت له إبل. فخرج يطلبها ويبحث عنها، إلى أن عبر النّيل بمصر، وسار في بلاد المغرب طالبا لها. فمرّ بجبال طرابُلس، فقال لغلامه: أين نحن من الأرض؟ فقال الغلام: نحن بأرض إفريقية. فقال: لقد تهوّرنا، والتهوّر عند العرب هو الحُمق. فسُمّيَ بهاذه اللّفظة هوّارا."[65]

وطبعا تُؤكّد الأسطورة بهاذا عروبة هوّارة، وشرفَ نسبها. ذالك أنّ هوّارا هو "المُسَوَّر بن المثنّى بن كَلاع بن أيمَن بن سعيد بن حِمير"[66]، كما تُؤكِّد محالفتَها لزناتة، وأخُوّتها لصنهاجة ولمطة[67]. ومثلما كان تهوُّر المُسوَّر سببا لأن تُدعى القبيلة هوّارة، كان انتشارُ عرب غُمارة في جبال شمال المغرب، سببا لأن يُدعَوْا غُمارة. قال صاحب "مفاخر البربر"، (-بعد712هـ): "وقيل فيهم: إنّهم عرب، وإنّهم غمروا في تلك الجبال، فسُمّوا غُمارة."[68] وقد ردّ ابن خلدون هاذه

[62]. مفاخر البربر: 51.
[63]. مفاخر البربر: 51.
[64]. مفاخر البربر: 65.
[65]. نزهة الأنظار: 223/1. وانظر: تاريخ ابن خلدون: 182/6. رحلة التّيجانيّ: 216. نزهة الأنظار: 54/1.
[66]. نزهة الأنظار: 223/1. وانظر: صُبح الأعشى: 417/1. تاريخ ابن خلدون: 182/6.
[67] نزهة الأنظار: 223/1.
[68]. مفاخر البربر: 71.

الأسطورة التّفسيريّة الاشتقاقية، ورأى أنّها "مذهب عاميّ"[69]. غير أنّ أساطير التّسمية القبليّة ظلّت قليلة مع هاذا.

4. أساطيرُ الهجرة البربريّة:

تميل الأساطير إلى تصوير علاقة البربر بالمغرب، على أنّها علاقة هجرة. إنّ المغرب، حسب تلك الروايات، قد كان فارغا أو شبهَ فارغ قبل أن يصل إليه البربر فيُعمِّروه. ومهما تكن الأرض الّتي وصل منها البربر، اليمنُ أو الحجاز أو الشّام أو مِصر، فإنّهم في زمن من الأزمان، قد عمّروا كلّ الشّمال الإفريقيّ، ثمّ الصّحراء الكبرى. وهي تميل ميلا شديدا إلى مزج هاذا الإشكال، إشكال الهجرة البربريّة، والموطن الأوّل للبربر، بإشكال أصل البربر، أو قل: إنّ هاذه الإشكالات جميعا إشكالٌ واحد، له جوانب متعدِّدة. وسواء أكان البربر من السّاميّين أم من الحاميّين، من العمالقة أم من التّبابعة، من الكنعانيّين أم من الأقباط، من العرب القيسيّة أم من العرب المُضريّة، فإنّ السّؤال يظلّ دائما واردا عن كيفيّة الهجرة الكبرى وظروفها، وهل كانت فرديّة أم جماعيّة، بل لماذا كانت الهجرة؟ إنّ هاذا ما تُحاول أن تُجيب عنه الأساطيرُ التّكوينيّة وتُفسِّره.

أ. الهجرة الفرديّة:

كثيرة هي الرِّوايات الأسطوريّة الّتي تتحدّث عن هجرة البربر الكبرى من اليمن والشّام إلى أرض المغرب. لاكن نادرةٌ هي الرِّوايات الّتي تتحدّث عن هجرة لهم أولى، فيما يُمكن أن نُسمِّيه جاهليّتهم الأولى، من الرّافدَين إلى الشّام. قال الملك المُؤيّد، أبو الفِداء، صاحب حَماة، (-732هـ): "وسام، إسمُه بالعبرانيّة شام، بشين معجَمة. وقيل: تشاءمت به بنو كنعان. هو ابنُ مازيغ بن حام بن نوح. وكان كنعان من جملة الّذين اتفقوا على بناء الصّرح. فلمّا بلبل الله السنتهم، في أواخر سنة مئةٍ وسبعين للطّوفان، وتفرّقوا، نزل كنعان في الشّام، ونزل في جهة فلسطين، وتوارثها بنوه. وكان كلُّ مَن ملك من بني كنعان، يُلقّب جالوت. إلى أن قتل داوود جالوتَ آخرَ ملوكهم، وكان اسمه كلياد."[70]

---

[69]. تاريخ ابن خلدون: 281/6.

[70]. المختصر: 96/1-97. وانظر: بغية الرُّوّاد: 179/1. (عن ابن قتيبة). وعند المسعوديّ رواية أخرى مفادها أنّ البربر من غسّان، خرجوا عند انهيار سدّ مأرب. اُنظر: صُبح الأعشى: 414/1. وعِندنا رواية أخرى تذكر أنّ الآشوريّين طردوهم من الرّافدين. انظر: افريقيا: 819/1.

ومن الطّريف أنّ الهجرة من الرّافدَين إلى الشّام في هاذا النّص كانت فرديّة، تماما مثل الرِّوايات الّتي سوف نرى عن تعمير البربر، بل السّاميّين والحاميّين، للمغرب. وهي الرِّوايات الأسطوريّة الّتي تجعل الهجرة الفرديّة أصلَ تعمير المغرب بالبربر. فسامُ بنُ نوح، كان أوّلَ مَن هاجر إلى المغرب، حتى بلغ السّوس الأقصى. وسببُ هجرته، صراعٌ جرى بينه وبين حام بن نوح أخيه. قال ابن خلدون، (-808هـ) ناقلا عن المسعودي، (-345هـ): "وذكر بعض أهل الآثار أنّ الشّيطان نزغ بين بني حام وبني سام. فوقعت بينهم مناوشاتٌ كانت الدَّبرة فيهم لسام وبنيه. وخرج سامٌ إلى المغرب. وقدم مِصر، وتفرّق بنوه. ومضى على وجهه يؤمّ المغرب، حتى بلغ السّوس الأقصى. وخرج بنوه في أثره يطلبونه. فكلّ طائفة من ولده بلغت موضعا وانقطع عنهم خبرُه."[71]

لا شكّ في أنّ هاذه الرِّواية تُريد أن تُلمّح إلى الأصل السّاميّ لأهل المغرب، وأنّه موطن هجرة سام بن نوح. وإذا كانت رواياتٌ أخرى لنفسِ هاذه الأسطورة، تجعل من حام هو المهاجر، بدلا من سام[72]، فإنّ كلّ هاذه الرِّوايات، تلتقي في كون المغرب الأقصى كان مهجرَ السّاميّين الأوائل، كما كان مهجر الحاميّين الأوائل، إذا أخذنا بهما معا، وهو أمر منهجيّ، وأنّ هجرة هاؤلاء كانت من المشرق، بدليل عبور مِصر، كما تلتقي في أنّ العنف هو السّبب الباعث على الهجرة وتعمير المغرب، والجلاء عن المشرق. غير أنّ هجرة الأخويْن سام وحام، ثمّ أولادهما بعدهما، ليست هي كلّ ما عندنا من أساطير الهجرة الفرديّة. بل لقد هاجر إليه برّ بنُ قيس، والمُسَوَّر بن المثنى، وبربر بن قِبط بن حام.

ب. هجرة بَرِّ بن قيس عيلان:

توجد روايتان اثنتان عن هجرة برِّ بن قيس عيلان من المشرق إلى المغرب، تُفسِّران انتساب بعض القبائل البربرية إليه. قال أبو الوليد ابنُ الأحمر، (-808هـ): "وسببُ خروج برٍّ بن قيس بن عيلان عن قومه العرب، واستيطانِه مع أخواله من البربر، أنّه شردت له ناقة، فوقعت له في بلد أخواله من البربر، فاستوطن معهم إلى أن مات في بلادهم. ونشأ ابنه مادغيس بينهم، ينطق بلغتهم

71. تاريخ ابن خلدون: 126/6.
72. انظر: أخبار الزّمان: 86-87، القصدَ والأمم: 23-24، الرّوض المِعطار: 57، بغية الرّوّاد: 180/1.

البربريّة، ويتزيّى بزيّهم. وانتشرت ذرّيّته فيهم، حتّى صاروا ألوفا لا تُحصى كثرة. يتكلّمون بكلامهم البربريّ، ويتحلّون بحُلاهم."[73]

إنّ هاذه الرّواية تجعل من المصادفة والاتّفاق سببا لهجرة برّ بن قيس، والتحام النّسب المضريّ بالنّسب البربريّ. وبناء عليها، يكون مادغيس أول عربيٍّ مولّد يتبربر. وفي رواية يحيى ابن خلدون، (-780هـ) عن الطّبريّ، أنّ: "برّ بن قيس توجه لنشدان ضالّة بأحياء البربر، فهويَ جارية منهم وتزوّجها. فولدت منه ذرّيّة كثيرين، غلب عليهم اسم أخوالهم البربر."[74]

وبناء عليه، لم يكن البربر أخوالاً لبر بن قيس، ولكن كانوا أخوالا لأولاده، لأنّه نكَح فيهم. وسبب هاذا النّكاح، هو الحبّ والهوى. وعلى كلّ حال، إنّ المصادفة وحدها هي السّبب الوحيد لتبربُر بعض العرب، أي مسوّغ القول بعروبة بعض البربر. وتُريد هاذه الرّواية أن تُصوّر، ضمن ما تريد تصويره، علاقة القرابة غير المباشرة بين عموم العرب وعموم البربر، (علاقة الخؤولة)، كما تريد أن تُصوّر علاقة الجوار القديمة بين عرب الحجاز، (قيس)، والبربر به، (أو بالشّام واليمن) أي إنّها تُفسّر الواقع التّاريخيّ للجوار العربيّ البربريّ في الإسلام، بواقع أسطوريّ كان في الجاهلية، أي بنموذج بَدئي وسابق في العلاقات الثّقافيّة العربيّة البربريّة. لقد كان الجوار من القرب بمكان لا يُنكَر، حتى كان من الممكن أن تضيع ضالّة من مساكن قيس، فيُبحَث عنها في أحياء الأخوال من البربر. إنّ هاذا الجوار القديم، فضلا عن الزّواج والحبّ، قد سهّلا إدماج برّ بن قيس، ثمّ بنيه، في البربر. وإذا كان هاذا مُمكنا في الجاهليّة، فلم لا يتكرّر في الإسلام بعد الفتح؟ إنّ هاذه الأسطورة تُريد بما تسرُده أن تُنظّم العلاقة الحادثة بين البربر والعرب بعد الإسلام على أرض المغرب، بالرجوع إلى الزّمن البدئيّ، وتخليدَه وتسويغ الواقع التّاريخيّ.

وإذا كانت هاذه الرّواية تُخفي هاذه الرّغبات، فإنّ الرّواية الثّانية لهاذه الأسطورة تُصرّح بأمر تنظيم العلاقة المستحدَثة بين العرب والبربر، وتُنمذِج أسطورة برّ بن قيس، وتجعل منها أمرا فاعلا في المسار الثّقافيّ والتّاريخيّ. قال

73. روضة النّسرين: 9-10. وانظر: بُغية الرّوّاد: 180/1. تاريخ ابن خلدون: 124/6.
74. بغية الرّوّاد: 180/1.

المؤرِّخ المجهول، صاحب "الذَّخيرة السَّنيَّة"، (ق8هـ) في نصٍّ طويل، مُركَّب من مجموعة من الأساطير، أساطير النَّسب والهجرة والالتحام والأخوَّة:

"وعند نسّابة البربر، وحكاه البكريُّ وغيرُه، أنَّه كان لمُضَرَ ولدان: إلياس وعيلان. أمُّهما الرَّباب بنت جبدة بن عمر بن معدٍّ بن عدنان. فولد عيلان بن مضر قيسا ودهمان. أمّا دهمان، فولده قليل. وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنو أمامة. وكانت لهم بنت تسمى البهاءَ بنت دهمان. وأمّا قيس عيلان، فوُلِد له أربعة بنين، وهم سعد وعمر. وأمُّهما مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار. وبرٌّ وتُماضر، وأمهما تمريغ بنت مجدل. ومجدل بن عمار بن مصمود.

وكانت قبائل البربر يومئذ يسكنون الشّام، ويُجاورون العرب في المساكن، ويُشاركونهم في المياه والمراعي والمسارح، ويُصهرون إليهم. فتزوَّج برُّ بنُ قيس بنت عمِّه، وهي البهاء بنت دهمان، وحسده إخوتُه في ذالك. وكانت أمُّه تمريغُ من دُهاة النِّساء، فخشِيَت منهم عليه. وبعثت بذلك إلى أخوالها سِرّا[75]. ورحلت معهم بولدها وزوجه إلى أرض البربر، وهم إذ ذاك ساكنون بفلسطين، وأكناف الشّام. فولدت البهاء لبرِّ بن قيس ولدين: علوان ومادغيس. فمات علوان صغيرا، وبقي مادغيس، فكان يلقب بالأبتر. وهو أبو البُتر من البربر، ومن ولده جميع زناتة. قالوا: وتزوَّج مادغيس بن برّ، وهو الأبتر، بآحال بنت واطاس بن محمد بن مجدل بن عمار. فولدت له زحيك بن مادغيس."[76]

لقد كان لبرِّ بن قيس إذن أمٌّ من البربر، وكان البربر يُجاورون العرب، ويُصهرون إليهم في الشّام. وزواج برِّ بن قيس من بنت عمِّه البهاء، ليس بالبدْع من الأمر. وكان سببُ خروجه من أرض قومه، خوفه من العنف، وذالك بتدبير من أمِّه، الَّتي خشيت عليه من إخوته غير الأشقاء، وحسدِهم له. ولم يكن سبب خروجه تورُّطا في نُشدان ضالَّة من بعير أو غيره، وإنَّما كان تدبيرا مُحكَما من امرأة داهية. إنَّ السَّبب لا يرجع إطلاقا إلى المصادفة أو القدَر، بل إلى الخوف من العنف، والتَّدبير المُحكَم. ولم يكن برَّ بنُ قيس حسب هاذه الرِّواية، أوَّلَ مَن نكَح في البربر من العرب، والتحم نسبُه بنسبهم. فلقد كان بين العرب والبربر صهرٌ ونسب سابقان، يُفسِّره الجوار، بل لم يكن أوَّل المولَّدين. لاكنَّ هجرته بأمِّه وأهله

75. الصَّواب: أخواله.
76. الذَّخيرة السَّنيَّة: 1/125-126. وانظر: بغية الرُّوّاد: 1/180.

إلى أرض البربر بالشّام، جعلت ذرِّيَّته تستعجِم. وهاذا يعني أنَّ الاستعجام، وهو من لوازم هاذه الرِّواية وتفسيرها، لم يكن على أرض المغرب، بل كان على أرض الشام، أي إنَّه تمَّ في المشرق نفسه، وقبل الهجرة الكبرى.

ومن الطَّريف أنَّ النُّصوص الشِّعريَّة الَّتي تُعزِّز هاذه الرِّوايات الأسطوريَّة، وتُخلِّد هجرة برٍّ بن قيس، لا تنسى أن تندب استعجامَ لسانِه، وتراه أمرا مُزريا برجل عربيّ، أو على الأصحّ، من المولَّدين بين العرب والبربر. لقد زعموا أنَّ تُماضِر، أختَ برِّ بن قيس، أنشدت تحنُّ إلى أخيها المُهاجر، وهو من الشِّعر الموضوع، ولا شكّ[77]:

1. وشطَّت ببَرٍّ دارُه عَـــنّـا * وطوَّح برٌّ نفسَه حيث يَمَّما
2. وأزرت ببرٍّ لكنَةٌ أعجميَّـة * وما كان برٌّ بالحجاز أعجَما

وتُضيف رواية يحيى ابن خلدون، عن البكريّ، بعضَ العناصر السَّرديَّة المشوِّقة. فالبهاءُ بنت الدَّهمان، كانت: "من أجمل نساء زمانها، وكثُر من بني عمِّها وغيرهم خُطّابها، فلم ترض بغير برٍّ منهم، وكان أصغرَ إخوته. فأزمعوا قتله حسدا. فخرجت أمُّه به، وبأخته تماضر، وبالبهاء ابنة عمِّه إلى قومها. فنسل بنوه فيهم بربرا."[78]

إن الخوف من العنف هو الذي جعل برَّ بن قيس يرحل من أرضه. ذالك أنَّـه كان صغيرَ إخوته، والمولَّد فيهم. وتُريد هاذه الرِّواية أن تُثبت أنَّ العرب والبربر، هم إخوانٌ أبناء عِلاّت، لا غرباء، وأنَّ الصِّراع الَّذي قد يكون بينهم، هو ما قد يكون بين الإخوان غير الأشقّاء، فلا ضَير، لأنَّ الأخوَّة ثابتة.إنَّ هاذا العنف الواقع في الزَّمن الجاهليّ، الذي حمل الخوفُ منه برًّا على أن يُهاجر بأهله الأدنَيْن، قد تجدَّد في الإسلام، في صورة أخرى. لاكنَّ رابطة النَّسب ولحمته قد كبَتَتا هاذا العنف لمصلحة الفتح الإسلاميِّ للمغرب. قال صاحب "الذَّخيرة السَّنيَّة"، مُتابعا سردَ أساطير الهجرة وبرِّ بن قيس، وانتماء زناتة والبربر في القيسيَّة:

"ولمّا فتح حسّانُ بنُ النُّعمان إفريقية والمغرب، كان أكثرُ جيوشه قبائلَ قيس. فأتى جبالَ أوراس من بلاد إفريقية، فوجد قبائل زناتة قد اجتمعت به لقتاله.

[77]. البيتان في: القصد والأمم: 25، الذخيرة السَّنيَّة: 19، بُغية الرُّوّاد: 180/1، تاريخ ابن خلدون: 124/6.
[78]. بُغية الرُّوّاد: 180/1.

فدعاهم إلى الإسلام، وقال لهم: يا معشرَ زناتة. أنتم إخواننا في النّسب، فلِم تخالفونا، وتُعينون علينا أعداءنا؟ أليس أبوكم برّ بنَ قيس بن عيلان؟ قالوا: بلى، ولاكنَّكم، معشرَ العرب، تُنكرون لنا ذالك، وتدفعوننا عنه. فإذا أقررتم بالحقّ، ورجعتم إليه، فاشهدوا لنا به على أنفسكم. فاجتمعت وجوهُ قيس وأشرافُها، وأشرافُ زناتة وأقيالها، وأشهَدوا على أنفسهم مَن حضَرهم من وُجوه العرب، ورؤساءِ أهل إفريقية من البربر والرّوم، وكتبوا بينهم كتابا فيه:

"باسم الله الرّحمان الرّحيم. هاذا ما شهد به أنجادُ قيس عيلان، لإخوانهم زناتة، بني برٍّ بن قيس عيلان، أنّا أقررنا لكم، وشهدنا على أنفسنا، وعلى آبائنا وأجدادنا، أنَّكم، معشرَ زناتة، من ولد برٍّ بن قيس عيلانَ بن مُضَرَ بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان. فأنتم، والحمد لله، إخوانُنا نسبا وأصلا. ترثوننا ونرثكم. نجتمع في جدٍّ واحد، وهو قيس عيلان. فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا. لم نزل نعرف ذالك، ونتوارث علمَه وصحّتَه من آبائنا ومشايخنا، وأهل العلم بالتّاريخ، والمعرفة بالأنساب مِنّا. يأخذه كابرٌ عن كابر، وعادل عن عادل. فليَعرفوا ذالك، ويُلزموا أنفسَهم وأموالَهم (كذا) معرفته، امتثالا لقوله، تعالى: "وَاتَّقوا اللهَ الّذي تَسَاءلون بِهِ وَالأرْحامَ." (سورة النّساء: 1.) واقتدوا بقوله، صلّى الله عليه وسلّم: "واتَّقوا اللهَ وصِلوا الأرحام". وقد قال، صلّى الله عليه وسلّم، حين خطب في حَجّة الوداع: "أيُّها النّاس. اِتّقوا اللهَ وصِلوا أرحامَكم، واحفظوا أنسابَكم." والله على ما نقول وكيل." قال الرّاوي: فلمّا وقع هاذا الإشهاد، أسلمت قبائلُ زناتة كلُّها في ذالك اليوم. وذالك سنة ثمانين من الهجرة."[79]

لا شكّ في أنّ هاذا الخبر التّاريخيّ المزعوم مصنوع، وأثر الصّنعة واضحٌ فيه متنا وسندا، وأنّ هاذه الوثيقة الشّرعيّة المزعومة، هي أيضا مصنوعة، ولا ريب. ولعلّها صُنِعت في المغرب الأقصى في القرن السّابع الهجريّ، أو ما يُقاربه، قرن نهضة بني مرين الزّناتيّين إلى الاستيلاء على السّلطان، أي في زمن متأخّر جدّا، لا في نهاية القرن الأوّل للهجرة. لاكنّ صُنْع هاذا الخبر، مبنيّ على أسطورة كانت رائجة في الماضي، وهي أسطورة عروبة بعض القبائل البربريّة، أو جلّها، ومُضَريّتها، كما قد رأينا، ومُضريّتُها مبنيّة على القول بانتسابها إلى برٍّ بن قيس عيلان، وهجرتِه إلى أرض البربر بالشّام، قبل أن يُهاجِر الجميع إلى شمال افريقيا، ويتفرّقوا بها. ولعلّ قبائل زناتة، كانت تُحيي

---

[79]. الذّخيرة السّنيّة: 17.

هاذه الأسطورة، كلّما احتاجت إلى دعم قبائل الأعراب من هلال وسُليم. ولعلّ الخلافة الموحديَّة استفادت منها، لاستجلاب مودّة زناتة، بالنّظر إلى القيسيَّة المزعومة، وهاذا ما سوف نراه، للخليفة عبد المؤمن. الدّليل على ما نذهب إليه، نصُّ الوثيقة نفسُه، وكونُ صاحب الذّخيرة انفرد بإثباتها دون غيره من المؤرّخين والمسطّرين، والمتقدّمين والمتأخّرين. وقد كان يكتب في القرن الأوّل من دولة بني مرين الزّناتية، وهي دولة أصرّت على عروبة أصلها، كما سنرى.

ويُمكننا أن نضيف إلى أسطورة هجرة برِّ بن قيس، عنصرا آخر، كأنّه منفصل عنها، ورد في بعض المصادر دون غيرها. ولم يرد عند الطّبريّ. قال ابن خلدون، (-808هـ) عن برِّ بن قيس: "وعند غيره، أنّه خرج فارًّا من أخيه عمرو بن قيس."[80] ونظنُّ أنّ هاذا عنصرٌ مكمِّل للأسطورة المذكورة، وما فيها من الخوف من ائتمار إخوة برِّ به، ومنهم عَمرو بنُ قيس، ليقتلوه، حسدا منهم له على زوجه الحسناء، ورغبتِها فيه، وهو الأصغر والمُولَّد، دون سائر إخوته الأكابر والصُّرحاء، وإعراضِها عنهم بعد أن خطبوها. ونظنُّ أنّ هاذا العنصر ملخَّصٌ من الرِّواية الأصليَّة التّامّة.

لقد واجهت أسطورة هجرة برِّ بن قيس عيلان الفرديَّة، طلبا للأمن على النّفس، أو نُشدانا للضّالّة، تسفيةَ النّسّابين والمؤرِّخين، ولا سيما ابن حزم الأندلسيّ، (-456هـ) بما يُعهد فيه من صراحة وجرأة، فقال عنها: "وما علم النّسّابون لقيس عيلانَ ابنًا اسمُه بَرٌّ أصلا."[81] وأصل هاذا التّسفيه عند البلاذريّ، (-279هـ) في "فتوح البُلدان"[82]. غير أنّه أثار ثائرة بعض المؤرِّخين المسطّرين، ولا سيما ابن سعيد الأندلسيّ، (-685هـ)[83] ولم يمنع من نمو الأدبيّات الّتي تُدعِّم أسطورة برِّ بن قيس وهجرتِه، نظما ونثرا، كالوثيقة المصنوعة الّتي أوردنا نصَّها، والأشعار المصنوعةِ الّتي نُحلت لتُماضر، أخت برِّ بن قيس، والّتي زعموا أنّها أنشدتها في الحنين إلى أخيها، وفي تأبينه، والأشعار الّتي نُحِلت لـ"بعض

80. تاريخ ابن خلدون: 124/6.
81. الجمهرة: 495. وانظر: بغية الرّوّاد: 180/1.
82. فتوح البلدان: 226. (عن عبد الله بن صالح).
83. المُسند الصّحيح الحسن: 107. (نقلا عنه وعن غيره).

ولد برِّ بن قيس"، وفيها يفخر بنسبه[84]، والشّعر المصنوع، الّذي أنشده عبيدةُ بن قيس العقيليّ، وخالدُ بنُ يزيد، ونحَله إيّاهما المسطّرون[85].

ت. هجرة المُسوَّر بن المُثنّى الحِميَريّ:

على شاكلة أسطورة هجرة برِّ بن قيس، تورد المصادر أسطورة هجرة هوّار الفرديَّة. قال الشّريف الإدريسيّ، (-560هـ): "وإنَّ أميرا من أمراء العرب، يُسمّى المُسَوَّر، كان ساكنا مع قومه في بلاد الحجاز، فضاعت له إبل. فخرج يطلبها ويبحث عنها، إلى أن عبر النّيل بمصر، وسار في بلاد المغرب طلبا لها، فمرَّ بجبال طرابلس، فقال لغلامه: أين نحن من الأرض؟ فقال الغلام: نحن بأرض إفريقية، فقال: لقد تهوّرنا. والتّهوُّر عند العرب هو الحُمق، فسُمّي بهاذه اللّفظة هوّارا."[86]

لقد سبق لنا أن عالجنا هاذه الأسطورة عند معالجتنا لأسماء القبائل البربريَّة وأساطيرها، إلاّ أنَّنا نقف عندها الآن لمعالجة إشكال الهجرة الفرديَّة الأسطوريَّة. إنَّ المصادفة وحدها هي الّتي جعلت من الأمير المُسَوَّر بن المُثنّى الحِميريّ يخرج من الحجاز، ولو أن أرض حِمير هي اليمن، ويوغل في شمال افريقية، حتى جِبال طرابلس. لقد خرج في طلب إبل له، وهو الأمير، مثلما فعل قبله أو بعده برّ بن قيس، في إحدى روايتيْ أسطورته. وفي نُشدانه للضّالّة، لم يعبأ المُسوَّر بنُ المثنى بقطع كلِّ الحجاز وأطراف الشّام ومصر، وصحراءِ برقة، حتى بلغ إفريقية. وعندما بلغ جبال طرابلس، تفطّن إلى تهوُّره، فلقب هَوّارا. وعلى خلاف برِّ بن قيس، لم تكن هجرة المُسوَّر إلى الشّام، ولاكن إلى الشّمال الإفريقيّ. وهنا نكَح في البربر، فصارت هوّارة أختا لصنهاجة ولمطة[87]. ويظهر من هاذا أنَّ الهجرة الفرديَّة، إن لم يكن فيها المرأة، فإنها لا بدَّ لها من الانتهاء بالزّواج من امرأة من نساء الأرض المُهاجَر إليها، سواء أكانت بكرا أم ثيِّبا، وإنسال قبيلة مُلتحِم نسبُها بنسب الأخوال، حتّى ليُظنّ من نسبهم. (هوّارة وصنهاجة ولمطة، أو بنو برّ والبربر).

---

84. بغية الرّوّاد: 180/1. (عن البكري). القصدُ والأمم: 25، الذّخيرة السّنيّة: 19، تاريخ ابن خلدون: 124/6.
85. تاريخ ابن خلدون: 124/6-125.
86. نزهة المشتاق: 223/1. وانظر رحلة التّيجاني: 216، تاريخ ابن خلدون: 182/6، نزهة الأنظار: 54/1.
87. نزهة المشتاق: 223/1.

وإذا لم يكن سبب الهجرة هو اتقاءَ العنف، (الرّواية الثانية لأسطورة برّ)، فإنَّه يرجع إلى الرَّغبة. (نُشدان الضّالّة). ونرى أن نُشدان الضّالّة هاذا، تصويرٌ رمزيٌّ أدبيٌّ لعوامل طرد تاريخية مجهولة، مَردُّها إلى الطَّبيعة أو إلى الاقتصاد، عرفتها هوّارة، وحتّى غيرُها من القبائل، كالجفاف ونُضوب المياه، والبحث عن المراعي، أو التَّحكُّم في مسالك التِّجارة، أو ما إلى هاذا. إنَّ الضّالّة هي الإبل، في كلتا الرِّوايتيْن. وهل كان معاشُ العرب والبربر وأموالهم إلاّ منها؟ وبهذا تكون أسطورة المُسوَّر بن المُثنّى هاذه تصويرا رمزيًّا لهجرة بربريَّة قديمة طلبا للمعاش، بعد فُقدانه في موطنه الأصليّ.

وتُجوِّز لنا هاذه الأسطورة أن نتصوَّر أنَّ هجرة المُسوِّر جاءت بعد هجرة برٍّ بن قيس، لأنَّه هاجر إلى إفريقية، حيث وجد أمَّ صنهاج ولمط ونكحَها، كما تُجيز لنا أن نتصوَّر أنَّها جاءت بعد هجرة إفريقش الجماعيَّة، كما سوف نرى، بدليل ورود لفظ إفريقيَة. وتُجيز لنا أن نتصوَّر أن تكون قبيلة هوّارة، ظهرت بعد قبائل صنهاجة ولمطة. غير أنَّ كلَّ محاولة لاستخراج تواريخ قبْليَّة وأخرى بعْديَّة من هاذه الأساطير، عملٌ غيرُ منهجيٍّ بالتَّأكيد، وخطأ كبير ولا شكّ، لأنَّ الأسطورة هنا، تُعيد كتابة التّاريخ الإسلاميّ، ولا تؤرِّخ للجاهليَّة البربريَّة، كما يتوهَّم المؤرِّخون القُدامى، وتُسقط حاضر ظهورها بعد الإسلام، على الماضي الجاهليّ، لتسويغ الحاضر وتقديسه ونَمذجته، مع التَّغافل عن حاضريته، وليكون الماضي هو المكوِّن لِلحاضر، وهو الَّذي يجعله شرعيًّا، أي ليكون الماضي الجاهليّ هو سِفرَ تكوينها الأوَّل.

وإذا كانت هجرة برٍّ بن قيس، قد أدَّت إلى نشوء قبائلَ بربريَّة، مثل زناتة، مُضَريَّة النَّسب، فإنَّ هجرة المُسوَّر قد أدَّت إلى نشوء قبيلة حميريَّة النَّسب، هي هوّارة، الملتحمة بصنهاجة ولمطة، وهما أيضا حِميَريَّتان. وهاذا يعني عندنا أنَّ أسطورة المُسوَّر بن المُثنّى الحِميَريّ، هي المَعادلُ المَوضوعيُّ والإناسيّ والأدبيُّ السَّرديُّ لأسطورة برٍّ بن قيس عيلان، بروايتَيْها، مع فارق الزَّمن والنَّتيجة. ذالك أنَّ برًّا، على ما يظهر، هاجر قبل المُسوَّر، والزَّمنُ السّابق، خيرٌ دائما من اللاّحق.

ولقد كانت هجرة برٍّ بن قيس، سببا في إطلاق اسمه على شعب بأسره. أمّا تهوُّر المُسوَّر، فكان سببًا في أن يتغيَّر اسمُه هو أوَّلا، ويصيرَ له لقبٌ لا يخلو من مَغمز، ثمَّ في أن تُسمّى ذُرِّيَّته قبيلة هوّارة، جريا على لقبه. وفرقُ النَّتيجة

هاذا، وهو فرقٌ بين شُمول الاسم لشعب من الشُّعوب، وبين اختصاصه بقبيلة من قبائل ذالك الشَّعب، لا يُمكن تفسيرُه إلاّ بهيمنة مُضَرَ وثقافتِها ولغتها على القبائل اليمنيَّة بعد الإسلام. فكان طبيعيًّا أن تُصورِّ نتيجة الهجرة، مقدارَ النُّفوذ المعنويِّ للثّقافة المُضَريَّة، وشُفوفِها على اليمنيَّة. كذالك، يُلاحظ أنَّ الأسطورة تُلِحُّ على أن برَّ بن قيس المُضَريّ، قد نكَح ابنة عمِّه، الّتي كانت من أجمل نساء وقتها، وكانت امرأة بكرا. أمّا قرينُه الحِميَريّ، فقد نكح امرأة ثيِّبا، بل ذاتَ ولد. أفلا يفضُل نكاحُ البكر نكاحَ الثَّيِّب عند الشُّعوب التي تُقدِّس البكارة، وتُحيطها بهالة من الاحترام، كالعرب والبربر؟

ث. هجرة بربر بن قِبط:

من الرِّوايات النّادرة في الأسطورة المغربيَّة، انتسابُ البربر إلى الأقباط الحاميّين، أهل الحضارة الفرعونيَّة القديمة بوادي النّيل. قال ابنُ عبد البرِّ النَّمَريّ الأندلسيّ، (-463هـ): "ولمّا نزل قِبط بنُ حام مِصر، خرج بربر بنُ قبط بولده إلى ناحية المغرب، فسكنوا من آخر عمل بمِصر، وهو ما وراء برقة إلى البحر الأخضر، مع بحر الأندلس، إلى مُنقطع الرَّمل، مُتَّصلين ببلاد السّودان... وصاروا إلى تاهرتَ وطنجةَ وسِجلماسة."[88]

وتُريد هاذه الأسطورة النّادرة، أن تُؤكِّد علاقة الأخوَّة والقرابة بين الشَّعبيْن القِبطيِّ المصريّ، وبين الشَّعب البربريّ. ولو أن بربر بنَ قبط، قد اختار أن يتَّجه غربا بولده، ويتركَ لإخوته من الأقباط مِصر وأرضَها، دون أن نعلم منها أيَّ سبب للهجرة. كما تُريد أن تُؤكِّد أنَّ الاستقرار البربريَّ على أرض المغرب، لا يقلُّ قِدما عن الاستقرار القبطيِّ على أرض الكِنانة. بيد أنَّ هاذه الأسطورة، أسطورة القرابة بين الأقباط والبربر، بقيادة جدِّ البربر، بربر بن قِبط، لم تستطع أن تغزو السَّرد الأسطوريَّ عن أصل البربر، أو أوَّليَّتِهم، بتعبير ابن خلدون.

ج. الهجرة الجماعيَّة:

إنَّ القول بهجرة أو هجْرات إلى أرض المغرب، هو الَّذي يُفسِّر وجود البربر به، بعد أن اقترن تاريخُهم الجاهليُّ بتاريخ الشّام والحجاز واليمن. وإذا كانت أسطورة الهجرة الفرديَّة لسام أو حام إلى المغرب، قد تُفسِّر تفسيرا مبدئيًّا الاستقرار البربريَّ به، فإنَّ هاذا لا يكفي النَّسق النَّظريَّ الأسطوريّ، ورؤيتَه

[88]. القصد والأمم: 24-25.

للماضي الجاهليّ. لقد أبدع التَّفكير الأسطوريّ مجموعة من الأساطير عن هجْرات جماعيَّة قديمة من المشرق، فضلا عن الهجْرات الفرديَّة. وتسير هاذه الأساطير في اتِّجاهين: اِتِّجاه يُصوِّر الهجرة بقيادة قائد أسطوريٍّ معلوم، واتِّجاه يُصوِّر الهجرة، دون أن ينصَّ على قائد معلوم.

ح. الهجرة بقيادة إفريقش الحِميَريّ:

قال ابنُ قتيبة، (-276هـ): "... ثُمَّ ملك... ابنُه إفريقش بنُ أبرهة الرايش. فغزا نحو المغرب في أرض بربر، حتّى انتهى إلى طنجة، ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والسّاحل، إلى مساكنهم اليوم. وكانت البربر بقيَّة من قتل يوشعُ بنُ نون."[89]

وَتوجد رواية أخرى لهاذه الأسطورة، أوردها الطَّبريّ، نقلا عن ابن الكلبيّ. (-204هـ) وهي أقدم روايات هاذه الأسطورة. وفيها بعض مخالفة في الجزئيّات والتَّفاصيل لرواية ابن قتيبة. قال الطّبريّ، (-310هـ):

"وزعم هشامُ بن محمَّد الكلبيّ، أن بقيَّة بقيت من الكنعانيّين، بعدما قتل يوشعُ مَن قتل منهم، وأنَّ إفريقش بن قيس بن صيفيٍّ بن سبإ بن كعب بن زيدِ بن حِميَر بن سبإ بن يشجبَ بن يَعربَ بن قحطان، مرَّ بهم متوجِّها إلى إفريقية، فاحتملهم من سواحل الشّام، حتّى أتى بهم إفريقية. فافتتحها وقتل ملكها جرجيرا. وأسكنها البقيَّة الّتي كانت بقيت من الكنعانيّين الّذين كان احتملهم معه من سواحل الشّام. قال: فهم البرابرة. وقال: وإنّما سُمّوا بربرا، لأنَّ إفريقش قال لهم: ما أكثر بربرتكم! فسُمّوا لذالك بربرا. وذكر أنَّ إفريقش قال في ذالك من أمرهم شعرا. وهو قوله:

1 . بربرت كنعانُ لمّا سُقتُها   من أراضي الهلك للعيش العجبْ

قال: وأقام من حِمير في البربر صنهاجة وكتامة، فهم فيهم إلى اليوم."[90]

إنّ أسطورة إفريقش، الملك اليمنيِّ الحِميَريّ، تُريد أن تُثبت أمريْن: الأصل اليمنيَّ العربيَّ لطائفة من البربر، دون الأخريات، لا سيما صنهاجة وكُتامة، وهو بالضَّرورة أصل نبيل، والأصلَ الكنعانيَّ البربريَّ للباقين، وهو أصل لا يخلو من شوائب، هاذا الأصل الّذي تُريد أساطير برِّ بن قيس إفراغه من مُحتواه، وتشريفه

[89]. كتاب المَعارف: 272.
[90]. تاريخ الطبريّ: 442/1.

بجعل هاؤلاء الشّاميّين المهاجرين، عربا مُضريّين، أو طائفة منهم، على الأقلّ، كما قد رأينا. كما نُريد أن تثبت أمرا آخر، لا يقلُّ خطورة عن الأوّل. وهو أنّ قبيلتيْ صنهاجة وكتامة، إنّما هاجرتا إلى المغرب طوعا لا كرها، وغازيتيْن فاتحتيْن، مع الملك إفريقش الحِميَريّ، لأنّهما من نسبه وقومه. أمّا غيرُهما من قبائل البربر، ولا سيما ذواتُ الأصل الكنعانيِّ القيسيّ، فإنّما جاءت المغرب كَرها، بعد أن هزمها بنو إسراعيل، وأنقذها إفريقش، تفضُّلا منه وإنعاما عليها. وبين الهجرة الأولى، والهجرة الثّانية فرقٌ كبير، هو الفرق بين العزِّ والذُّلّ، والقوّة والضّعف، والكثرة والقِلّة، والمجد المُؤَثَّل والمهانة. وهاذه كلُّها قِيم ثقافيَّة قد تُفسِّر واقع البربر بعد الإسلام، وطريقة ارتباطهم بالعرب، وتجعل لقبيلتيْ كتامة وصنهاجة، السِّيادة على سائر البربر المسلمين.

وفي دائرة هاذا التَّمييز بين الهجرتيْن، الهجرة الكنعانيَّة، والهجرة اليمنيَّة، تسير الرِّوايات المختلفة المتعدِّدة لأسطورة إفريقش الحِميريّ. قال عبد الحق الأزديّ الإشبيليّ، المعروفُ بابن الخرّاط، (-581هـ) فيما تُنوقل من اختصار الرُّشاطيّ، (-542هـ): "وذكر الهمذانيّ، أنَّ إفريقش بن أبرهة ذي المنار ... بن حمير، خرج غريبا (كذا، ولعلها: غازيا) نحو الغرب في أرض البربر، حتّى انتهى إلى طنجة. ونقل البربر من أرض فلسطين ومصرَ والسّاحل إلى مساكنهم اليوم. قال: وخلّف مع البربر من خلّف من حِميَر اليمن، مثل صنهاجة وكتامة. ومثل هاذا القول قال الكلبيّ، (كذا)، وأبو عبيد، القاسم بن سلاّم.

قال الهمذاني: ثُمَّ تقدّم موغلا في المغرب، حتى بنى مدينة إفريقية، وهي مشتقّة من اسمه. وخلّف في البربر قوما آخرين، ليردّوهم عن شاكلتهم القديمة، ويأخذوا أتاوتَهم، ويُدبِّروا أموالَهم. فهم اليوم على ذالك. ومنهم اليوم بالمغرب، كتامة ولواتة وصنهاجة. وهم الغالبون على المغرب اليوم.

قال: وأمّا مُرَّة بنْ عبد شمس، فإنَّ ولده، فيما يقال، واللهُ أعلم، كتامة وصنهاجة ولواتة وزميتا (كذا)... وهم رؤساء البربر. نُقِلوا مع سيِّدهم كتيع بن يزيد، يوم أشخصه إفريقش إلى إفريقية، وصرف المُنتاب عنها. قال أبو محمد، (عبد الحق الأزديّ): فشرف صنهاجة أصيل، ومجدُهم أثيل، ورياستُهم قديمة، ونسبهم إلى حِمير معلوم."[91]

[91]. نشر المَثاني: 1/164-165.

إنّ رواية أسطورة إفريقش هاذه عند الهمداني، وتعليق عبد الحق الأزديّ، في اختصاره لاقتباس الأنوار للرّشاطيّ، توضّح في جلاء، ودون مُواربة ولا رمز، ما أبهمته رواية الطّبريّ عن ابن الكلبيّ. ذالك أنّ استقرار صنهاجة وكتامة بالمغرب، كان لضبط البربر الكنعانيّين القادمين من الشّام ومصر وفلسطين، ضبطا عسكريّا وإداريّا. و"شرف" صنهاجة، ثمّ كتامة ولواتة بعدها، بعد الإسلام، يُفسّره ما قبله في الجاهلية. "فهم الغالبون علي البربر اليوم"، "وهم رؤساء البربر". والنّتيجة الضّمنيّة، أنّ مَن كانت له السّيادة في الجاهلية، فهو الأولى بها في الإسلام، وأنّ القبائل الحِميَريّة، تستحقّ السّيادة والسّؤدد على البربر. "فشرف صنهاجة أصيل، ومجدُهم أثيل، ورياستُهم قديمة، ونسبُهم إلى حِميَر معلوم." ويُعلَم من هاذا ضِمنا أنّ غير كتامة وصنهاجة، اللّتيْن بنتا دولتي المرابطين والزّيريّين، والخلافة الفاطميّة، وعددا من الإمارات الصّغيرة، لا تستأهل السّؤدد، لأنّ شرفها، إن كان لها شرف، حادثٌ غيُر أصيل ولا مؤثّل، ورياستُها مستحدَثة، ونسبَها في العرب غير معلوم. وبهاذا نفهم أن عصبيّة صنهاجة وكتامة، اللّتيْن تزعّمتا البربر في القرون الإسلاميّة الأولى، قد أنتجت مجموعة من الأساطير عن تاريخها الجاهليّ، ونسجتها على منوالها لتُوظّفها في بناء مشاريعها التّاريخيّة.

إنّ تأثير إفريقش لا يقتصر على احتمال الكنعانيّين إلى المغرب، وفتحِه والقضاء على الرّوم به، بقتل الملك جَرجيرا، ثمّ تعمير المغرب بحِميَر والبربر. بل إنّه يتعدّى ذالك إلى ما هو أبعد. لقد تسمّت إفريقية بإفريقش، أي إنّه هو الّذي كوّنها، لمّا بنى المدينة، وهو الّذي سمّى الكنعانيّين المهزومين بربرا، أي إنّه هو الّذي أنقذهم من الهلاك، وجعل لهم كيانا، بعدما كانوا "أوزاعا" من قبائل وشعوب شتّى[92]. إنّ تسمية الشّيء تُعادل إيجاده، لأنّ الشيء الموجود وغير المُسمّى، في حكم المعدوم لا الموجود. وهو الّذي نظّمهم، لمّا أسكن صنهاجة وكتامة معهم، لضبط شؤونهم، وجعلهم تابعين لهما. ونتيجة كلّ هاذا، أنّ إفريقش الحِميريّ الفاتح، إذ حمل معه البربر، وسمّاهم، وعمّر المغرب بهم وبحِمير، هو الذي أعطى للمغرب الجاهليّ صفتَه وهُويّتَه اللّتيْن وجدهما عليهما العرب الفاتحون، أي هو الذي أنشأه من العدم التّاريخيّ. إنّ التّاريخ المغربيّ الجاهليّ، يبتدئ بإفريقش الحِميَريّ اليمنيّ. إنّ قيادة إفريقش الحميريّ للهجرة البربريّة

---

[92]. تاريخ ابن خلدون: 123/6. (عن مالك بن المرحّل)

الكبرى، جعلت منه في روايات أسطوريّة أخرى أبا أسطوريًّا للبربر كلّهم أو بعضهم. قال عبد الواحد المراكشيّ، (بعد620هـ) ملخِّصا لكلام الطّبريّ: "وسُمِّيت إفريقية بذالك، لنزولِ إفريقش، من ولد حام بن نوح بها. وإفريقش هاذا هو أبو البربر. فالبربر كلّهم من ولد حام بن نوح، خلا صنهاجة، فإنّهم يرجعون إلى حِميَر. هاذا كلّه قول أبي جعفر، محمّد بن جرير الطّبريّ في تاريخه، من لدن إفريقش إلى ذكر صنهاجة."[93]

وإذا لم يكن إفريقش أبا للبربر كلّهم، فإنّ الرِّوايات قد تجعل منه أبا لكتامة وصنهاجة، اللّتيْن رأينا في الرِّواية السّابقة أنّهما جاءتا معه. قال ابن عبد البرّ النّمريُّ الأندلسيّ، (-463هـ): "وقيل: إنّ كتامة وصنهاجة، من ولد إفريقش بن صيفيٍّ الحِميريّ."[94] وقد أحسّ ابن خلدون، بأنّ إفريقش بن صيفيّ، ليس إلاّ أسطورة من الأساطير: فقال: "ومن الأخبار الواهية للمؤرِّخين، ما ينقلونه كافّة في أخبار التّبابعة، ملوكِ اليمن وجزيرة العرب، أنّهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب، وأنّ إفريقش بن قيس بن صيفيّ، من أعاظم ملوكهم الأوّل، وكان لعهد موسى، عليه السّلام، أو قبله بقليل، غزا إفريقية، وأثخن في البربر، وأنّه الّذي سمّاهم بهذا الاسم، حين سمع رطانتهم، وقال: ما هاذه البربرة؟ فأخِذ هاذا الاسم عنه، ودُعوا به من حينئذ، وأنّه لمّا انصرف من المغرب، حجز هنالك قبائل من حِميَر، فأقاموا بها واختلطوا بأهلها، ومنهم صنهاجة وكُتامة. ومن هاذا ذهب الطّبريّ والجرجانيُّ والمسعوديّ، وابنُ الكلبيِّ والبيليّ، إلى أنّ صنهاجة وكُتامة من حِمير. وتأباه نسّابة البربر. وهو الصّحيح."[95]

خ. الهجرة بقيادة جالوت:

من الرِّوايات الأسطوريّة النّادرة عن الهجرة الكبرى، ما أورده ابنُ سعيد الأندلسيّ، (-685هـ) عن جبل بمصر، يُسمّى جالوت. قال: "ونُسِب إلى جالوت، على زعمهم، لأنّه لمّا فرّ من فلسطين، حين قتِل الّذي كان قبله، أقام بهاذا الجبل، ومنه دخل بولده وقومه إلى المغرب."[96] إنّ جالوت ملك البربر، الّذي خلف

---

[93]. المعجِب: 493.
[94]. القصد والأمم: 25. وانظر عن انتساب صنهاجة وكتامة إلى إفريقش مباشرة: الكامل: 80/1، تاريخ الطّبريّ: 207/1، المختصَر: 97/1، تاريخ ابن خلدون: 201/6. (عن الطّبريّ).
[95]. المقدّمة: 295/1-296.
[96] بسط الأرض: 63.

جالوت المذكور في القرآن[97]، فرَّ بنفسه وقومه من فلسطين، وأقام في المغرب، بعد أن اجتاز بمصر. وبهاذا تترك لنا الأسطورة المغربية، إمكانيَّة لتخمين وجود عدَّة هجْرات بربريَّة كبرى، لا هجرة واحدة، وتربط مباشرة بين النَّصِّ القرآنـيّ، وبين مصير البربر الأسطوريّ.

د. الهجرة البربريَّة الجماعيَّة المُغفلة:

لا تربط الرِّوايات الأسطوريَّة دائما بين الهجرة الجماعيَّة الكبرى، وبين قائد أسطوريٍّ معين. أي إنَّ أسطورة الهجرة الكبرى، ليست تلتحم دائما بأسطورة الملك إفريقش، أو جالوت، ولا سيما عندما تضعُف المصلحة في ذلك الالتحام أو تنعدم. قال الشَّريف الإدريسيّ، (-560هـ): "وكانت ديار البربر فلسطين. وكان ملكُهم جالوتَ بن ضريس بن جانا، وهو أبو زناتة المغرب. وجانا هو ابن لُوَيِّ بن برِّ بن قيس بن إلياسَ بن مُضَر. فلما قتل داوود، عليه السَّلام، جالوت البربريّ، رحلت البرابر إلى المغرب، حتى انتهوْا إلى أقصى المغرب."[98]

ويظهر أنَّ الرَّبط بين قائد معيَّن، وبين الهجرة البربريَّة الكبرى، هو إبداع صنهاجيٌّ كُتاميّ، وأنَّ هاتيْن القبيلتيْن، لمّا انتسبتا في حِمير، وأرادتا أن تُفسِّرا بالماضي اليمنيِّ المشرِّف، حاضرَهما وقتئذ، أدمجتا في أسطورة الهجرة رمزا أسطوريًّا هو إفريقش، مع ما يلزم هاذا الرَّمزَ من لوازم السِّيادة، كقيادته للبربر، وفتحِه للمغرب، وإجلائه للرّوم، وبنائه لمدينة إفريقية، وما إلى هاذا. غير أنَّ هاذه الأسطورة قد تروى ملخَّصة، أي دون أيِّ ذكر لقائد الهجرة. قال صاحب "الحُلل الموشيَّة"، (-بعد783هـ) وهو ينقل عن أبي عبد الله، محمَّد بن يحيى الزُّهريِّ الأندلسيّ، (-بعد546هـ): "وليس بين لمتونة وبين البربر نسبٌ إلاّ الرَّحم. وصنهاجة يرفعون أنسابهم إلى حِمير، وأنَّهم خرجوا من اليمن، وارتحلوا إلى الصحراء، وهي موطنهم بالمغرب."[99]

ويظهر أنَّ أسطورة الهجرة البربريَّة الكبرى، كما كانت ترويها نسّابة قبائل صنهاجة، قد تعرَّضت إلى التَّلخيص، كما قد رأينا، كما تعرَّضت للاندماج في

97. سورة البقرة: 249-251.

98. نزهة المشتاق: 1/222-223. وعن هجرة البربر، أنظر: فتوح مصر: 28، مختصر كتاب البلدان: 83، المسالك والممالك، لابن خرداذبة: 91، القصد والأمَم: 24-25، آثار البلاد: 163، الرَّوض المعطار: 145، بغية الرُّوّاد: 1/179 رحلة التِّيجانيّ: 160، مفاخر البربر: 1، الحُلل الموشية: 186، جنى زهرة الآس: 8، تاريخ ابن خلدون: 2/573. 6/123، نزهة الأنظار: 1/52-53، جذوة الاقتباس:1/14. 1/179.

99. الحُلل الموشيَة:18.

أسطورة تُبَّع، ملك اليمن المؤمن، وصارت الأولى سببا في الثّانية، وذالك في زمن متأخِّر. كما صُوِّرت كذالك في صورة الهجرة الدّينيَّة. قال صاحب "بيوتات فاس الكبرى"، (ق8هـ) متحدثا عن صنهاجة:

"وكان السَّبب في انتقالهم إلى المغرب، أنَّ تُبَّعا أحد ملوك التَّبابعة، لم يبلغ أحد منهم في فضله وعزَّة ملكه مبلغه، وملكَ جميع العرب، وقهر ملوك العجم. وكان له خبرٌ بالكتب المنزَّلة. فكان يوما مع العالم يثربَ ينظر فيها، فوجد فيها أنَّ الله تعالى، يبعث رسولا إلى كافَّة النَّاس، وجميع الأمم، وخاتمُ النَّبيئين والمُرسَلين، ويهاجر من مكَّة إلى المدينة. فصدَّقا به، وآمنا وسارا. (كذا) وسُمِّيت يثرب، إلى أن سمّاها رسول الله، (ص)، المدينة وطيبة. ثُمَّ رجع تُبَّع ويثرب إلى مملكة اليمن، فدعاهم إلى ما آمن به، فأجابه طوائفُ منهم، وآمنوا بما آمن به، وصدَّقوا. ثُمَّ تُوُفِّي. وكان من جملة مَن آمن مِن صنهاجة، لمتونة ومسّوفة، ولمطة وكدّالة. ثُمَّ إنَّ أهل الكفر تغلَّبوا على أهل الإيمان، وطردوهم. ففرَّ مَن ذُكِر مِن صنهاجة إلى صحراء المغرب، الَّتي بين السّودان المغربية، وبلاد المغرب، فسكنوها."[100]

واضح إذن من هاذا النَّصِّ الأسطوريّ، أنَّ أسطورة الهجرة البربريَّة الكبرى، ولا سيما هجرة صنهاجة منها، قد التحمت بأسطورة تُبَّع ملك اليمن المؤمن، الذي آمن بالنَّبيّ، (ص)، قبل مبعثه، لأنَّه رأى ذالك في الكتب القديمة، والَّذي بنى وزيرُه مدينة يثرب، أي الملك سيفُ بنُ ذي يزن، كما في سيرته. كما لم تخلُ من الإشارة إلى اضطهاد دينيٍّ كبير وقع في اليمن، كان سببَ جلاء صنهاجة. ولعلَّها تريد بذالك أن تُشير إلى أنَّه الاضطهاد الدّينيُّ الكبير في اليمن، المذكورُ في القرآن، في قصَّة أصحاب الأخدود.[101] إنَّ سبب الهجرة، ليس الغزوَ والفتح، كما في أسطورة الهجرة بقيادة إفريقش، ولا الفرارَ من القتل، كما في أسطورة جلاء البربر بعد مقتل جالوت ملكهم. ولاكنَّه الفرارُ بالدّين، تماما كما هاجر أصحاب النَّبيّ، عليه السَّلام، إلى الحبشة. إن قبائل صنهاجة المؤمنة، لمتونة ومسّوفة، ولمطة وكدّالة، وهي القبائل التي بنت دولة المرابطين، قد رحلت عن أرضها، فرارا بدينها الحنيف التَّوحيدي، لمّا "غلب أهل الكفر"، على "أهل الإيمان". وبذالك قدِمت صنهاجة على المغرب عربيَّة ومؤمنة، فكانت أولى

---

[100]. بيوتات فاس: 27.

[101]. انظر سيرة ذي يزن: 1/2-9. وانظر: البداية والنهاية: 2/129-132.

القبائل، لِما صدر منها في السابق، فحسُن إيمانُها عند الفتح الإسلامي، وتصدَّرت العصبية البربريَّة الدّينيَّة. فكان بناءُ دولة المرابطين الكبرى، بعثا لدولة الملك تُبَّع، ووزيره يثرب، وتجديدا له، ووصلا للخلف بالسَّلف. وكان أبو بكر بن عُمرَ اللّمتونيّ، وعبد الله بن ياسين، يقومان في دولة المرابطين الدّينيّة، بما كان يقوم به الملك تُبَّع ووزيرُه يثرب، مع بعض الاختلافات الجزئيِّة. إنَّ الحاضر في الأسطورة، لا تكون له شرعيَّة إلاّ بقدر ما يتأسَّس على الماضي المقدَّس، ماضي البدايات الأولى.

وإذا كانت رواية صاحب "بيوتات فاس" هاذه، لا تُصرِّح بالعلاقة بين هجرة صنهاجة، وبين دولة المرابطين، فإنَّ رواية أخرى لنفس تلك الأسطورة، وهي رواية أندلسيَّة، تُضيف بعض الجزئيّات المفيدة، لتخرج من التَّلميح إلى التَّصريح. قال صاحب "الحُلل الموشية"، (بعد 783هـ) ناقلا عن الزُّهريّ الأندلسيّ، (بعد 546هـ):

"وسبب ذالك، أنَّ أحد ملوك من التَّبابعة، لم يكن ممَّن تقدَّمه مِن ملوك قومه مثله، ولم يبلغ أحد منهم في فضله وعزَّة ملكِه، وبعُدِ غزوه، ونكايةِ عدوِّه، وقهره العربَ والعجمَ مبلغَه. فأنسى جميع الأمم ممَّن كان قبله. وكان قد أخبره بعض الأحبار بحوادث الأيام، وبالكتب المنزَّلة من الله على رُسُله، عليهم الصَّلاة والسَّلام، وأنَّ الله يبعث رسولا هو خاتم الأنبياء، ويُرسله إلى جميع الأمم. فآمن به، وصدَّق بما يأتي به، وقال فيه: شهدت على أحمد أنَّه رسول الله. ونظمها في أبيات من الشِّعر:

1. شَهدتُ على أحمدَ أنَّــهُ * رَسولٌ مِن الله باري النَّسَمْ
2. فلو مُدَّ عُمري إلى دهْره * لَكُنتُ وَزيرًا له وابنَ عَـمّ

في أبيات كثيرة، قصَّتُها مشهورة. ثُمَّ سار إلى اليمن، ودعا أهل مملكته إلى ما آمن به، فلم يُجِبه إلى ذالك إلاّ طائفة من قومه حِمير. ولمّا هلك، غلب أهل الكفر على أهل الإيمان. فكان كلُّ مَن آمن به، وتبع ملَّته، بين قتيل وطريد، ومطلوب وشريد. وفرّوا بأنفسهم، وتفرَّقوا أيادي سبإ في الأقطار. فكان هاذا سببَ خروج سلف الملثَّمين عن اليمن، كما ذُكِر، وكانوا أوّل من تلثَّم. ثُمَّ انتقلوا من قطر إلى قطر، ومن مكان إلى مكان، حتّى صاروا بالمغرب الأقصى ببلاد البربر، فاحتلّوا به واستوطنوه، وصار اللِّثام زيَّهم الَّذي أكرمهم الله به، ونجّاهم لأجله من عدوِّهم. فاستحسنوه ولازموه، وصار زيًّا لهم ولأعقابهم، لا يُفارقونه

إلـى هـاذا العهـد. وإنّمـا تبربـرت ألسـنتُهم لمجـاورتهم البربـر، وكـونِهم معهـم، ولمصاهرتـهم إيّاهم."[102]

ويتّضـح مـن هـاذا السّـرد الطّويـل، أنّ هـاذه الرّوايـة مركّبـة مـن أسـطورة الهجرة والانتماء العربـيّ لصنهاجة، وأسطورة الملك تُبّـع، (الملك سيف بن ذي يزن)، فضلا عن قصص الاضطهاد الدّينيّ فـي اليمن، الّتي يشير إليهـا القرآن الكريم في قصّـة الأخدود، ثُمَّ بين كلّ مـا سبق، وبين أسطورة اللّثام المرابطي، وسبب تسمية صنهاجة أهل اللّثام.

ويتّضح أيضا أنّ هاذه الرّواية تُركّب كلّ هاذه العناصر المشرقيّة والمغربية في نصٍّ واحد، لتُؤسّس التّاريخ المرابطيّ على تاريخ يمنيٍّ يُفسّره ويُدعّم مشروعيّته. ذالك أنّ كلّ ما تمّ في الزّمن الماضي، زمن البدايات الأولى، بتعبير مرسيا إلياد، هو ما يُعطي المشروعيّة لما يتمّ في الزّمن الحاضر، لأنّ الماضيَ هو المؤسّس تأسيسيا وجوديّا. وليس هاذا بغريب. ذالك أنّ الزّهريّ الّذي نقل عنه هاذا النّص، من كُتّاب القرن السّادس الهجري، قرن دُول صنهاجة، الزّيريّين والمرابطين، وبني غانية بجزائر البليار.

5. الفاتحون القُدامى:

إنّ كون المغرب الأقصى جاء في طرف الأرض الأقصى، حسب التّصوُّرات الجغرافيّة القديمة، وكونَ القرآن الكريم، تحدّث عن ذي القرنيْن الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها، (سورة الكهف: 83-98) قد جعل من البديهيّ التفكيرَ في أنّ من الجائز أنّ ذا القرنين قد بلغ المغرب الأقصى، بل أقصى نقطة في هاذا المغرب الأقصى، لتكون الأسطورة الإنسانيّة شاهدا على صحّة الكلام الإلاهيّ المنزّل. وإذا كان القرآن لا يتحدث عن الإسكندر المقدونيّ، ولا عن غزواته القديمة، ولا يُصرّح بأنه هو ذو القرنيْن، ولا هو غير ذي القرنين، فقد تكفّلت الأسطورة بتفسير قصّة ذي القرنين، وجعلت منه قائدا عسكريًّا يغزو أقاصي المغرب، وجعلت منه بالتّصريح أو بالتّلميح، الوجهَ الآخر للإسكندر المقدونيّ. وإذا كان المفسّرون قد اضطربوا في تعيين شخص ذي القرنين القُرءاني، وضبطِ هويّته التّاريخيّة، فذالك راجع إلى اضطراب الأساطير التي اعتمدها المفسّرون وتداخُلها. ذالك أنّ الثّقافات المتوسطيّة والعربيّة، أنتجت أساطير كثيرة عن غُزاة كبار،

[102]. الحُلل الموشية: 19.

عاشوا في زمن قديم، وملكوا العالمين، وقهَروا الأمم، ثم هلكوا بعدئذ، فصارت قصصهم عبرة للمعتبرين. من هاؤلاء الاسكندر وذو القرنين.

أ. الإسكندرُ وذو القرنين:

قال عنهما المسعوديّ، (-345هـ) ملخّصا للخلاف الأسطوريّ في صددهما: "ونسَب قوم الاسكندرَ إلى أنّه الإسكندر بن فِلِبُّسَ بن مصريم بن هرمسَ بن هردوش بن منظور بن رومي بن نويطِ بن نوفيل بن رومي بن لبط بن يونانَ بن يافث بن نوح. ونسبه قوم إلى أنّه من ولد العيص بن إسحاقَ بن إبراهيم. ومنهم من رأى أنّه الإسكندر بن برقة بن سرحون بن رومي بن بربط بن نوفيلَ بن رومي بن الأصفر بن أليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم. وقد تنازع النّاس فيه، فمنهم من رأى أنه ذو القرنين، ومنهم من رأى أنّه غيره. وقد تنازعوا أيضا في ذي القرنين. فمنهم مَن رأى أنّه إنّما سُمِّي ذا القرنين، لبلوغه أطراف الأرض، وأنّ الملك الموكَّل بجَبل قاف، سمّاه بهذا الاسم. ومنهم من رأى أنّه من الملائكة. وهاذا قول يُعزى إلى عمرَ بن الخطاب. والقول الأوّل قول ابن عباس في تسمية الملكِ إيّاه. ومنهم من رأى أنّه كان ذا ذؤابتين من الذّهب. وهاذا قول يُعزى إلى عليٍّ بن أبي طالب. وقد قيل غيرُ ذالك. وإنّما نذكر تنازُع الشّرعيّين من أهل الكتاب."[103]

يتّضح ممّا سبق، أنّ الأسطورة العربيّة، قد حاولت اكتساب الإسكندر، عندما نسبته إلى إبراهيم، عليه السّلام، كما حاولت أن ترى فيه ذا القرنين القرآنيّ، وأن تُفسِّر سببَ تلقيبه بذي القرنين. ويتّضح أيضا أنّ مُماهاة الإسكندر بذي القرنين، الفاتح التاريخيِّ المشهور، محاولة لإدماج الأسطورة المتوسطيّةِ في القصّة القرآنيّة. بل لقد ذهبت الأسطورة العربيّة إلى أبعدَ من هاذا، فجعلت من الإسكندر ذي القرنين، رجلا عربيًّا يمنيّا. قال المسعوديّ، (-345هـ) في هاذا الصّدد: "وقد ذكره تُبّع في شعره، وافتخر به، وأنّه من قحطان. وقيل: إن بعض التّبابعة غزا مدينة رومية، فأسكنها خلْقا من اليمن، وإنّ ذا القرنين، الّذي هو الإسكندر، من ألائك العرب المتخلّفين بها. والله أعلم."[104]

لقد مالت الأسطورة العربيّة إلى إدماج مجموعة من أعلام الفاتحين القُدامى، بعضِهم في بعض، لتجعل منهم علما واحدا، ولتُعرِّب هاذا العلم. ولقد

---

[103]. مروج الذهب: 9/2.
[104]. مروج الذهب: 9/2.

صار بذالك الإسكندر اليونانيُّ من ذرِّيَّة إبراهيم الخليل، عليه السَّلام، بل قحطانيًا، بل ذا القرنين القرآنيّ. ومهما تعدَّدت الخلافات والجزئيّات في الرِّوايات الأسطوريَّة، فإنَّها تنتهي على العموم بالرَّبط ما بين ذي القرنيْن القرآنيّ، وبين العرب، أو بينه وبين اليونان. قال أبو الفداء، الملك المؤيَّد، صاحب حَمــــاة، (-732هـ): "إن الإسكندر المذكور، لم يكن منه ذالك؛ بل ذو القرنين الَّذي ذكره الله في القرآن. وهو ملك قديم كان على زمن إبراهيم الخليل... وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن...وممّا نقله ابنُ سعيد المغربيّ، أنَّ ابن عباس... سُئل عن ذي القرنين الَّذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، فقال: هو من حِميَر."[105]

وعلى كلِّ حال، ومهما يكن انتماءُ الإسكندر، فقد غزا المغرب، وبلغ أقصاه، وتحكَّم في رقاب البربر. قال البيرونيّ، (-440هـ): "ولمّا كان الإسكندر بن فليبوس اليونانيّ، جمَع مُلك الرّوم بعد أن كان طوائف، وقصدَ ملوك المغربِ وقهرَهم، وأمعن حتّى انتهى إلى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصر...ودانت له القِبط والبربر والعبرانيّون."[106]

وسواء أكان الاسكندرُ هو ذا القرنين القرآنيّ، أم لم يكن، فقد بلغ الأقصى المغرب، حتّى البحر، ودوَّخ أهله من البربر. وسواء أكان ذو القرنين هو الإسكندر، أم ملكا من ملوك اليمن وتبابعتها، فإنَّه قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها. قال البيرونيّ: "وقيل: إنّ ذا القرنين هو أبو كرب، شمر بن يرعشَ بن إفريقش الحميريّ. وسُمِّي بذلك لذُؤابتين كانتا تَنوسان على عاتقيْه، وأنه بلغ مشارق الأرض ومغاربها...ويُشبه أن يكون الحقُّ من بين هاذه الأقاويل هو الأخير."[107]

ليس بغريب أن يكون ذو القرنين، الَّذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ملكا من ملوك اليمن. ذالك أنَّ الأسطورة تُحكم الرَّبط بين البربر، أو بعضهم، وبين اليمن. وإذا كان ذو القرنين حفيدا لإفريقش الحِميريّ، فلِم لا يقتدي الحفيد بالجدّ، بل لِم لا يفوته، فيبلغَ أكثر مما بلغه الجدّ؟! وإذا كانت كتُب التَّفسير النَّقليّ، تميل إلى مناقشة هويَّة ذي القرنين، وعلاقته بالإسكندر، فإنَّ أساطير كتُب التّاريخ والجغرافية وما إليها، تميل إلى تصوير إقامته بالمغرب وتفصيلها، وذِكر

105. المختصر: 1/45-46.
106. الآثار الباقية: 38-39.
107. الآثار الباقية: 42.

المشاكل التي عانى منها. وإذا كانت النُّصوص التَّفسيريَّة المغربيَّة الخالصة في هاذا الصَّدد نادرة، فقد عثرنا على نصٍّ يَستنتج من قصَّة ذي القرنين القرآنيَّة، أحكاما لأهل المغرب الأقصى، دون غيره من البلاد. قال الشَّيخ زرّوق، (-899هـ) فيما نُقِل عنه: "وقال مولانا، جلَّت قدرتُه، لذي القرنين في أهل المغرب الأقصى، "إمّا أن تُعَذِّبَ وإمّا أن تَتَّخِذَ فيهِمْ حُسْنا"[108]. فدلَّ على استحقاقهم لكلِّ ما يُعامَلون به من خير أو شرّ، وأنَّهم لذالك أهل. واللهُ أعلم."[109]

ويظهر أنَّ قلّة الكتابات التَّفسيريَّة المغربيَّة، قد جعلت من أسطورة الإسكندر وذي القرنين أسطورةً جغرافيَّة تخصيصيَّة مندمجة في أساطير المواقع والمدن، أكثرَ منها أسطورة لعموم المغرب الأقصى. غير أنَّ هاذا التَّخصيص أغنى أسطورته. فالإسكندر هو الّذي قسَّم المعمورة إلى أربعة أقسام، وجعل طنجة في القسم الأول منها، وهو فيها أحيانا عينُه هرقل، وتجعل منه بانيا للقنطرة العجيبة، وحافرًا للزُّقاق بين المغرب والأندلس، وتذكر أنَّه ركب البحر إلى الجزائر الخالدات، ووضع فيها الأصنام ليهتدي النّاس إلى أن لا مسلكَ وراءها في البحر، كما وضع الأصنام في البرّ، ليهتدي الناس إلى أن لا مسلكَ بعدها في الرِّمال، ووصل إلى مدينة النُّحاس، ودَخل الرِّباط وسلا وشالّة، بل بناها، ووصل إلى جبال دَرَن، والمملكة اليهوديَّة بتافلالت.وهُوَ ما سَوفَ نَراه.

ب. بختنصَّر، وغزوُ المغرب الأقصى:

من نوادر أساطير المغرب الجاهليّ، أسطورةُ بختنصَّر، وغزوه للمغرب الأقصى، وهو الرَّجل الذي أهلك مملكة إسرائيل. قال الطَّبريّ، (-310هـ): "كتب بختنصَّر إلى ملك مصر: إنَّ عبيدا لي هربوا مني إليك، فسرِّحْهم إليّ، وإلاّ غزوتُك وأوطأتُ بلادَك الخيل. فكتب إليه ملكُ مِصر: ما هم بعبيدك، ولاكنَّهم الأحرارُ أبناءُ الأحرار. فغزاه بختنصَّر، فقتله، وسبى أهل مصر. ثمَّ سار في أرض المغرب، حتّى بلغ أقصى تلك الناحية."[110] لاكن، يظهر أنَّ ورود المغرب في هاذا النَّص قد جاء عرَضا، ولم يكن لغزو بختنصَّر الآشوري العراقيِّ الأسطوريِّ هاذا أيُّ عواقبَ ثقافيَّة أو أسطوريَّة، فيما يَظهَر.

---

108. سورة الكهف: 86.
109. إتحاف أعلام الناس: 1/66-67.
110. تاريخ الطبريّ: 1/539.

ت. أبرهةُ ملك اليمن، وحِميَرُ بن سبإ، وغزوُ المغرب:

قال المقريزيّ، (-845هـ): "حمير، ويقال له العرنجحُ بن سبأ الأكب، وهو عامر عبد شمس، إبنِ يشجبَ بن يَعربَ بن قحطانَ بن هود، نبي الله، وأخو عاد بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح...جمع الجيوش، وسار من اليمن يطأ الأمم، ويدوس الأرْضين، وهو يوغِل في المشرق، حتّى أبعد ياجوج ومأجوجَ إلى مطلع الشّمس. ثمَّ قفل نحو المغرب...ونزل حِمَر بدمشق، ونصب لحرب بني مازيغ (كذا) بن كنعان، حتّى أثخن فيهم، وأجرى على من بقي منهم الخراج، وفرض عليهم الأتاوة في كلّ سنة يحملونها إليه...وسار حِميَر في بلاد المغرب يوقِع بالأمم، حتّى بلغ البحر المحيط..ورجع إلى مصر، بعدما أقام في بلاد المغرب مِئَة عام يبني المدن، ويتَّخذ المصانع."[111]

إنَّ الأساطير عن غزوات اليمنيّين للمغرب الأقصى، ليست نادرة، كالأسطورة السابقة. ذالك أنَّ إفريقش بن صيفيٍّ الحِميريّ، وذا القرنين، خيرُ دليل. ومن هاؤلاء الملوك اليمنيّين، غزاةِ المغرب الأسطوريّين، ياسرُ بنُ عمرو. قال عنه ابنُ قتيبة، (-276هـ): "خرج غازيا نحو المغرب، حتى أتى واديَ الرَّمل الجاري، فوجَّه جيشا في الرَّمل، فهلكوا فيه، ولم يعد منهم أحد، فأمر بصنم نحاس، فعُمِل. وكتب عليه بالمُسنَد: ليس ورائي مذهب، ورجع."[112]

ومن هاؤلاء الملوك اليمنيّين الأسطوريّين، غزاةِ المغرب، أبرهة ذو المنار. قال عنه الطَّبريّ: "وذو منار، الّذي ذكره الشّاعر، هو ذو منار بن رائش، الملكُ بعد أبيه، واسمه أبرهةُ بن الرّائش. وقال: وإنّما سُمِّي ذا منار، لأنه غزا بلاد المغرب، فوغل فيها برّا وبحرا. وخاف على جيشه الضّلال عند قفوله، فبنى المنارَ ليهتدوا بها. قال: ويزعُم أهل اليمن، أنّه كان وجَّه ابنه العبد بن أبرهة في غزوته هاذه إلى ناحية من أقاصي بلاد المغرب، فغنم وأصاب مالا، وقدِم عليه بنسناس، لهم خلْق وحشيَّة مُنكرَة، فذعِر النّاس منهم، فسَمَّوه ذا الأذعار. قال: فأبرهة، أحد ملوكهم الذين توغّلوا في الأرض."[113]

ويظهر أنَّ هاذه الأسطورة، هي الوجه الآخر لأسطورة إفريقش الحِميريّ، المتوغّل في المغرب، الّتي رأيناها. وهي، وإن لم تكن تقوم بتفسير

111. المقفى: 3/692-693.
112. كتاب المعارف: 273.
113. تاريخ الطّبريّ: 1/384. وانظر: كتاب المعارف: 272.

الوجود البشريّ البربريّ على أرض المغرب، أو تقول بعروبة البربر كلّهم أو بعضِهم، مثل سوابقها، فإنّها، مع ذالك، تقوم بوظيفة تدعيم أسطورة إفريقش الحِميريّ، من حيث القول بجواز قيام غزاة يمنيّين بغزو أرض المغرب، كما تُدعِّم من طرف خفيٍّ أسطورة ذي القرنيْن اليمنيّ، الذي بلغ أقصى المغرب. فضلا عن هاذا، تؤسِّس هاذه الأسطورة توجُّها ينزع إلى أن المغرب أرضُ الغرائب. أليس النَّسناس كائنا بين الإنسان والحيوان، وكائنا غريبا جدّا، له خِلقة مُنكَرَة، كما تصفه الأسطورة؟![114]

ث. أركلش، صاحب صنم قادس:

كثيرة هي الأساطير الّتي تُصوِّر الفاتحين القدامى، كالإسكندر وذي القرنين، وإفريقش، وأبرهة ذي المنار، يصلون إلى المغرب من المشرق برّا. وبعض هاذه الأساطير، يزيد على بعض، ويُدعِّم بعضُها بعضا، كما قد رأينا. أمّا أن ترد الأساطير بتصوير غزو شماليٍّ للمغرب، أي من أوربَّة، فهو أمر نادر قليل، لاكنَّه موجود. والنَّصُّ الوحيد الّذي عثرنا عليه في هاذا الصَّدد، هو أسطورة تُشير إلى غزو أوربِّيٍّ للمغرب الجاهليّ. ولعلّها تُخلِّد ذكرى الغزو الونداليِّ على طريقتها. قال ابنُ عبدِ المنعم الحِميريّ، (-726هـ)، عن حفر زُقاق جبل طارق، وبناء القنطرة العجيبة: "ولمّا أحكم أركلش (صاحب صنم قادس السِّحري) هاذه الآثار، صمد إلى بلاد البربر، فعبر إلى مدينة سبتة، من الزُّقاق الخارج من البحر المحيط. ولم يزل يفتتح مدينة بعد مدينة."[115]

غير أنَّ هاذا الغزو الأوربِّيَّ الشماليَّ للمغرب، الّذي تُخلِّده هاذه الأسطورة، لم يُخلِّف شيئا يُذكَر، فلا أنسابُ أهل المغرب اتَّصلت بالوندال، ولا بغيرهم من الأوربِّيِّين، ولا هو ترك مُدُنا ولا آثارًا ثقافيَّة. ذالك أنَّ المنزع العامَّ للأسطورة المغربيَّة، هو تصويرُ المغرب أرضا مفتوحة للغزاة والمهاجرين القادمين من أرض الشَّمس، لا من الشَّمال الأوربِّيّ، على الرَّغم من الاستعمار الرّوماني، والاكتساح الونداليّ. ويظهر أنَّ اقتران المغرب بالمشرق، قد جعل هاذا المنزع الشَّماليَّ يندثر، ووقعت مشرقة الغزاة القدامى، وحتّى من لم يكن مشرقيًّا منهم في الأصل، كالإسكندر، عندما صار ذا القرنين.

---

114. انظر عنه: عجائب المخلوقات: 307.
115. الرّوض المعطار: 449.

6. ملوك البربر الأسطوريون: جالوت:

لم يكن جالوت ملكا على بربر المغرب، ولكنه كان ملكا على البربر، كما تُصوِّر الأسطورة، وهم بفلسطين. وكان مقتله على يد نبيِّ الله، داوود، عليه السَّلام، سببا في هجرة البربر إلى المغرب. وتَسيرُ الأسطورةُ المَغربيَّةُ في اتِّجاهَين: فإمّا أن تَجعَلَ مِن جالوت، مَلِكًا لِلبَربَر، بَل ءاخِرَ مَلِكٍ لَهُم، قبلَ أن يَرحَلوا إلى المَغرب، وينقرض نظامُ الجواليت، وإمّا أن تجعلهم من ولده، ومنه أبا أسطوريًّا لشعب بأسره. والظّاهر أنَّ أسطورة جالوت، ملكِ البربر، كانت ملتقى ومجتمعا للأساطير العربيَّة البربريَّة، والأساطير الإسرائيليَّة. قال الطَّبَريّ: "كانت بنو إسراءيل يُقاتلون العمالقة. وكان ملكُ العمالقة جالوت. وإنَّهم ظهروا على بني إسراءيل، فضربوا عليهم الجِزية، وأخذوا توارتهم. فكانت بنو إسراءيل يسألون الله أن يبعث معهم نبيًّا يُقاتلون معه."[116]

وكان ردُّ الكرَّة لبني إسراءيل على البربر العمالقة الجبّارين، وملكِهم جالوت، بظهور طالوت، وداوود، عليه السَّلام. قال الطَّبريُّ عن داوود: "ثمَّ مشى إلى جالوت، وكان جالوتُ من أجسم النّاس وأشدِّهم. فلمّا نظر إلى داوود، قذف في قلبه الرُّعب منه، فقال له: يا فتى. اِرجع، فإنّي أرحمك أن أقتلك. فقال داوود: لا. بل أنا أقتلك. فأخرج الحجارة، ووضعها في القذّافة؛ كلّما رفع منها حجرا سمّاه، فقال: هاذا باسم أبي إبراهيم، والثّاني باسم أبي إسحاق، والثّالث باسم أبي إسراءيل. ثمَّ أدار القذّافة، فعادت الأحجار حجرا واحدا، ثمَّ أرسله، فصكَّ به بين عينيْ جالوت، فنقبت رأسه، ثمَّ قتلته. فلم تزل تقتل كلَّ إنسان تُصيبه: تَنفُذ فيه، حتّى لم يكن بحيالها أحد. فهزمهم عند ذالك. وقتل داوود جالوت. ورجع طالوت، فأنكح داوودَ ابنتَه، وأجرى خاتمه في مُلكه. فمال النّاس إلى داوود، فأحبّوه".[117]

للبربر إذن موقعٌ من القرآن الكريم، الّذي يذكر ملكَهم جالوت، ولهم أيضا موقع من التَّوراة، الّتي تذكرهم باسم العمالقة والجبّارين، وتشهد بتفوُّقهم على بني إسراءيل، قبل أن يبعث الله فيهم داوود. وإذا كان بنو إسرائيل قد غلبوا جالوت، واضطرّوا شعبه البربريَّ إلى الهجرة، فما عسى أن يصنع هؤلاء أمامَ نبيٍّ مرسل؟! ولَقد كانت هزيمةُ جالوت سببا للهجرة البربريَّة الكبرى، قال

116. تاريخ الطَّبريّ: 467/1.

117. تاريخ الطَّبريّ: 473/1.

اليعقوبيّ، (-284هـ): "وكانت ديار البربر فلسطين، وملكُهم جالوت. فلما قتله داوود، انتقلت البربر إلى المغرب، ثُمّ انتشرت إلى السّوس الأدنى، خلف طنجة، والسّوس الأقصى... وكرهت البربر نزول المدائن، فنزلوا الجبال والرمال."[118]

لقد ابتدأ تاريخ البربر بالمغرب بمقتل جالوت القرآنيّ، إذ إنّ مقتله سبَّب الهجرة الكبرى، كما قد أسلفنا. ووجد البربرُ مكانا لهم في القرآن، وأكَّدوا علاقتهم بالكنعانيّين، أي أكَّدوا موقعَهم من شجرة الأنساب العالميَّة. وقد يُذكر أنَّ جالوت ليس علما لملك بعينه من البربر، بل هو لقب كان يتلقَّب به كلُّ مَن ملك البربر، أو الكنعانيّين. قال أبو الفدا، الملك المؤيَّد، (-732هـ): "وكان كلُّ مَن ملك من بني كنعان، يُلقَّب جالوت، إلى أن قتل داوود آخرَ ملوكهم، وكان اسمُه كلياد."[119]

وبناء على هاذا، جاز أن يكون جالوت، الَّذي ذُكِر في القرآن الكريم، ليس هو ءاخرَ ملوك البربر، بل الذي قاد قومه إلى المغرب. قال ابن سعيد الأندلسيّ، (-685هـ) عن جبل بمصر: "ونُسِب إلى جالوتَ بزعمهم، لأنَّه لمّا فرَّ من فلسطين، حين قَتلِ الَّذي كان قبْله، أقام بهذا الجبل، ومنه دخل بولده وقومه إلى المغرب." [120]

غير أنَّ هاذه الرِّواية نادرة. وقد انتقلت أسطورة جالوت، من ملك للبربر بالمشرقِ، إلى أب للشّعب البربريّ، أو لبعض قبائله الباحثة عن نبالة النَّسب. قال عليّ بنُ عبد العزيز النَّسّابة، فيما ينقله عنه ابنُ عبد البرِّ الأندلسـيّ، (-463هـ): "لا أعلم في البربر شيئا يُقارب الصِّحَّة، إلاَّ قولَ مَن قال: إنَّهم مِن ولد جالوت."[121]

ومثلما وقع الخلاف في أصل البربر، وتضاربت فيهِ الأساطير، كما قد رأينا، وقع الخلافُ في نسب جالوت، بل تعدَّدت أنسابه.[122] ولقد مالت بعض القبائل إلى الانتساب إلى جالوت، أو جعْل جالوت منها، ولا سيما زناتة. قال

---

[118]. مختصر كتاب البلدان: 83. وانظر عن علاقة مقتلِ جالوت بالهجرة الكبرى: فتوح مصر: 28، مروج الذهب: 61/1، المسالك والممالك: لابن خرداذبة: 91، بغية الرُّوّاد: 179/1. آثار البلاد: 163. (عن ابن حوقل)، الرَّوض المعطار: 145، مفاخر البربر: 1، الحلل الموشية: 186، جنى زهرة الآس: 8، تاريخ ابن خلدون: 573/2. 122/6-123، نزهة الأنظار: 53/1.

[119]. المُختصَر: 97/1.

[120]. بَسط الأرض: 63.

[121]. القصد والأمم: 26. وانظر: الحُلل الموشية: 185، صورة الأرض: 103، تاريخ ابن خلدون: 122/6.

[122]. القصد والأمم: 26، نزهة المشتاق: 222/1-223، بغية الرُّوّاد: 179/1، تاريخ ابن خلدون: 122/6، نزهة الأنظار: 53/1.

الشَّريف الإدريسيّ، (-560هـ): "وكانت ديارُ البربر فلسطين، وكان ملكهم جالوتَ بن ضريس بن جانا، وهو أبو زناتة المغرب. وجانا هو ابن لوْي بن برٍّ بن قيس عيلان بن إلياسَ بن مضر. فلما قتل داود، عليه السَّلام، جالوت البربريّ، رحلت البرابر إلى المغرب، حتى انتهوْا إلى أقصى المغرب."[123]

وبالجمع بين أسطورتيْ برِّ بن قيس عيلان، وجالوتَ المذكور في القرآن، بوصل نسب الثّاني منهما بالأوّل، أكّدت زناتة في أسطورة واحدة، نبالة أصلها، بالانتماء في العرب القيسيّين، وظهور الملوك في كلٍّ منها. واستفادت من رمزين أسطوريَّين في آن واحد، لتؤسِّس أسطورتها الخاصَّة.

7. أنبياءُ المغرب الأسطوريّون:

قد يبدو غريبا جدًّا الحديث عن أنبياء بالمغرب، لأن الدِّيانات السَّماويَّة الَّتي انتشرت على أرض المغرب، وهي اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام، كلُّها مشرقيَّة، ولم تتحدَّث إطلاقا عن أنبياء لها في المغرب. أمّا الوثنيَّة البربريَّة الجاهليَّة، فلم تترك من ذكراها شيئا يُمكن أن يرقي إلى مرتبة الأنبياء أو المتنبِّئة، اللّهمَّ إلاّ ما ورَد عن البرغواطيَّة وحاميم، متنبِّئ غمارة. غير أنَّ متنبِّئة برغواطة، لا يعدُّهم العرف الإسلاميُّ العامُّ من الأنبياء، وليسوا هم المقصودين بذالك. بل المقصود في الأسطورة المغربيَّة، أنبياء استوطنوا المغرب، وأقاموا فيه، وماتوا وأقبروا فيه، وكانت أضرحتُهم ما تزال بيِّنة إلى عهد ليس بالبعيد. وهم من أنبياء الكتُب السَّماوية. قال محمَّد بنُ جعفر الكتانيّ، (-1345هـ):

"شاع وذاع عند أهل سوس، أنَّ تلك الجبال الحائلة بين بلادهم وصحاري المغرب، بقبلتها مدفنُ ثلاثة من الأولياء. أحدُهم اسمه دانيال، ببلاد تكمت. وقبره معروف عندهم إلى الآن. يستسقون بقبره، إذا نزل بهم قحط، ويستشفون بترابه، ويقصدونه في قضاء حوائجهم. وخرجت من عند رجلي القبر عينُ ماء غزير، عمَّ نفعُها أهل تكمت كلّهم. وذُكِر أنَّ بعض الظّلَمة تجاسر على قبره بما لا ينبغي، فخرجت نار من القبر فأحرقته، وأحرقت أناسا معه. وما يزيد على ألفيْ نخلة من نخيل تلك البلاد. والله أعلم. والثاني اسمُه سيدي ولكناس. مدفنه على رأس جبل بين تزغت، ووادي إسافن. قبره معروف عند أهل تلك البلاد، معظَّم محترم، يقصدونه بالزِّيارة، ويستشفون بترابه كذالك. ولا يسكن أحد بالقرب منه

---

123. نزهة المشتاق: 1/222-223. وانظر: تاريخ ابن خلدون: 7/5-6.

إلاّ بعيدا. ومن رام السُّكنى بالقرب منه وسكن، يظهر له ما يكره بالقرب عاجلا. والثّالث: إسمه شناول. مدفنه ببلاد تمدُلت، خارج الجبال المذكورة لناحية الصحراء."[124]

من الصعب أن نعرف متى قرَّرت الأسطورة المغربيَّة تحويل ذكرى هاؤلاء الثلاثة، إن كانوا قد وُجدوا أصلا، من أعلام مقدَّسين لبركاتهم وولايتهم، إلى أنبياءَ من أنبياء بني إسرائيل، وأن تُحوِّل مزاراتهم إلى بقاع مقدَّسة محرَّمة، تحميها أساطير الانتقام. لاكنَّه يظهر أنَّ أسطورة هاؤلاء الثَّلاثة قديمة جدا، وقد خضعت إلى تحوُّلات عميقة، قبل أن تستقرَّ في صورتها الَّتي سجلها الكتانيُّ عليها. ولاكن، على الرَّغم من القول بنبويَّة هاؤلاء الأعلام، فإنَّ قداسة مزاراتهم، ليس لها من الثّقل في الأسطورة المغربيَّة ما لأصاغر الأولياء في الأساطير الولويَّة. بل تظهر كراماتهم، (معجزاتهم)، من النَّوع المألوف أن يقوم به أصاغرُ الأولياء. ولا تنسى الأسطورة المغربيَّة أن تُبيِّن سبب وصول هاؤلاء الأنبياء التوراتيّتن المزعومين من المشرق، ولا كيفيَّته. إنَّ محمَّد بن جعفر الكتانيّ، ينقل عن محمَّد بن سعيد المرغيثيّ، أنَّ سبب استيطان هاؤلاء الأنبياء بالمغرب، هو طلبُ الأمن على أنفسهم من بختنصر الطّاغية. قال: "وسبب دخول هاؤلاء الأنبياء المغرب، هو أنَّ بختنصَّر، كان يقتل الأنبياء. وفرَّ هاؤلاء بأنفسهم، وركبوا البحر، فلاح بهم الرّيح لرباط ماسَّة، وخرجوا منها وتوجَّهوا لناحية القِبلة".

ليس المغرب بأهل لأن يظهر فيه الأنبياء. ذالك أنَّ النّور والشَّمس، لا يظهران ولا يبدوان في بلاد الظُّلمة والغروب. ولاكنَّه أهل لأن يستقبلهم، إذا رحلوا من أوطانهم، فرارا بأنفسهم. لقد رَمت السَّفينة بهاؤلاء الأنبياء على شاطئ ماسّة، وهو شاطئ بلد مقدَّس، وصل إليه يونس، عليه السَّلام، ويسكن فيه قومُه. بل ازداد رباط ماسَّة قداسة، بوصول هاؤلاء الأنبياء الإسراعليّين إليه، ولو أن أحدهم، وهو ولكناس، لا يظهر من اسمه أصلُه الإسرائيليّ. وبوصول الأنبياء الثَّلاثة إلى المغرب، توجَّهوا فورا إلى القبلة، أي إلى اتِّجاه الشَّرق، لأنَّ النور لا بدَّ له من أن يأتي من الشَّرق، أو أن يُقيم فيه.

ويظهر أنَّ القول بوصول أنبياءَ إلى المغرب، ووجودِ مدافنَ لهم فيه، تَثبت قداستُها بالكرامات، نادر في الأسطورة المغربيَّة. وبتعبير آخر، لم تكن

[124]. سلوة الأنفاس: 3/239-240.

الأسطورة المغربيَّة تميل إلى توظيف النُّبوَّة في نسقها العامّ. وإذا استثنينا هاؤلاء الفارّين من بختنصّر، ولا يكاد يكون لهم حيِّز في أساطيرنا المغربية، واستثنينا ذا القرنين، وهو رجل مختلف في نبوَّته[125]، فإنَّ النُّبوَّة التَّوراتية وغير التَّوراتيَّة لا يكاد يكون لها وجودٌ في الأسطورة المغربيَّة.

ويظهر أنَّ أساطير الصُّلحاء، المتجذِّرة في الثَّقافة المغربيَّة، قد عملت على التَّمهيد لظهور أساطير الأنبياء الإسراءيليِّين الثَّلاثة، ولا سيما أن "معجزات" مدافنهم المرويَّة، لا تزيد قوَّتها على قوَّة كرامات أصاغر الأولياء، كما قد أسلفنا. ويظهر أيضا أنَّه لا سبيل إلى تعقُّل الرَّبط بين هاؤلاء الأنبياء، وبين متنبِّئة برغواطة، لأنَّ المواقع المذكورة في أساطيرهم، أبعدُ ما تكون من أرض مملكة برغواطة. (سوس، ورباط ماسّة، والجبال المذكورة).

---

125. انظر مثلا عن الخلاف في نبوّة ذي القرنين: البداية والنّهاية: 2/102-103، بدائع الزُّهور: 210.